مفهـوم السـعادة من منظـور إسـلامي

مقدمة :

إن الشخص العادي عادة ما يصدر حكمه على سعادة غيره بظواهر ذلك الشخص ؛ فهو عادة يحكم على شخص بأنه سعيد إذا كان منطلق الأسارير مبتسماً ضاحكاً ؛ وقد يحكم عليه مثلاً بالسعادة ، لأن له مسكناً جميلاً أو زوجة جميلة أو سيارة فخمة أو لأنه سافر إلى معظم البلدان أو لأنه ترقى إلى وظيفة ذات مرتب كبير أو حصل على درجة علمية رفيعة. أما الشخص المتعمق فيعلم أن هذه العلامات قد تكون كاذبة وقد لا تكفي للحكم بالسعادة وقد تكون سبباً للتعاسة ، فالإنسان قد تكون له زوجة جميلة أو وظيفة عالية ولكن لا يكون سعيداً. لأجل ذلك فهو يبحث عن أسباب أكثر ثباتاً ، كطمأنينة البال ؛ فيشترط أن يشعر بالقناعة والرضا وسكون النفس ويقول : ينبغي أن لا ننظر في الحكم على سعادة الفرد إلى ظواهر تصرفاته وسلوكه السطحي فقط ؛ بل علينا أن نسبر غور ما بداخله.

كذلك نجد أن بعض علماء النفس يتعمقون في وضع المعايير التي بموجبها يمكن الحكم على الفرد بالسعادة ، ولقد أورد بعضهم علامات للسعادة سنذكر بعضها عند الحديث عن علاقة علم الصحة النفسية بمفهوم السعادة منها " تقبل الفرد الواقعي لحدود إمكاناته واستمتاع الفرد بعلاقاته الاجتماعية ، ونجاحه في عمله ورضاه عنه... وإقباله على الحياة بوجه عام... ".

وما يسميه البعض لحظات سعادة كقدوم مولود أو نجاح ابن أو شفاء مريض أو لحظة انتصار أو لحظة براءة أو لحظة تكريم وثناء واعتراف بفضل أو إنجاز أو لحظة ابتكار واكتشاف يرى البعض الآخر أنها لحظات سرور وفرح لا ينبغي أن يوصف صاحبها بالسعادة ، لأن السعادة كما يرون أكثر ثباتاً ودواماً وشمولاً. فما هي السعادة وما حقيقتها؟ وهل هي الغاية القصوى للإنسان؟ وهل هي موضوعية أم ذاتية ؟ وما هي مقوماتها ووسائلها وخصائصها ؟ وهل هي ممكنة ؟ وهل يمكن أن توجد كاملة صافية ؟ هذه الأسئلة تمثل إشكالية مفهوم السعادة.

قبل محاولة طرح هذه الإشكاليات والأسئلة نود أن نقدم لهذا البحث بالحديث عن أهمية مفهوم السعادة في مجال العلوم الاجتماعية وبإعطاء لمحة تاريخية لمفهوم السعادة عند ارسطوطاليس وابن مسكويه وبنتام ومل.

أهمية الدراسة :

إن البحث في مفهوم السعادة بحث مهم ؛ ويحتل مكانة خاصة في علوم مختلفة كعلم الأخلاق ، وعلم النفس ، ويتصل بعلم التربية والقانون ، وبالعلوم السياسية ، وبعلم الاقتصاد. وبنظرية صنع القرارات ، فهذه العلوم يبحث بعضها مباشرة في مفهوم السعادة كعلم الأخلاق وعلم النفس " **خاصة علم الصحة النفسية** " والبعض يبحث في مفاهيم مشابهة كمفهوم المنفعة والقيمة والإشباع.

السعادة والصحة النفسية :

إن مفهوم السعادة من أهم المفاهيم التي يبحث فيها علم الصحة النفسية ، بل إن هذا العلم عادة ما يعرف على أساس أنه يهدف إلى تحقيق السعادة للإنسان ؛ فتعرف الصحة النفسية مثلاً بأنها تستهدف معونة كل فرد وتدريبه على العيش السعيد

المنتج في بيئة اجتماعية وكذلك تعتبر السعادة مقياساً للصحة النفسية " **الصحة النفسية للفرد تقاس بمدى قدرته على التأثير في بيئته وقدرته على التكيف مع الحياة بما يؤدي بصاحبها إلى قدر معقول من الإشباع الشخصي والكفاءة والسعادة** ".[1] وما يذكر عن مؤشرات الصحة النفسية هو نفس ما يذكر عن مؤشرات السعادة. ومن هذه المؤشرات : تقبل الفرد الواقعي لحدود إمكاناته واستمتاع الفرد بعلاقاته الاجتماعية ، ونجاح الفرد في عمله ورضاه عنه... والإقبال على الحياة بوجه عام ، وكفاءة الفرد في مواجهة إحباطات الحياة اليومية... وإشباع الفرد حاجاته ودوافعه... وإثبات اتجاهات الفرد... والاتزان الانفعالي... وتصدر الفرد لمسئولية أفعاله وقراراته. إن اتجاهات علم النفس المختلفة من سلوكية وتحليلية وغيرها لها آراء مختلفة عن الصحة النفسية ومن ثم عن أسباب سعادة الإنسان، ولا نستطيع ذكر هذه الإتجاهات ولكن سنأخذها بعين الاعتبار عند الحديث عن مفهوم السعادة.

مفهوم السعادة والاقتصاد :

في المجال الاقتصادي يفسر الإقتصاديون عادة سلوك المستهلك عندما يريد تحديد خطته الإنفاقية بقولهم : إن الإنسان يرغب في الحصول على المجموعة السلعية التي تحقق له أكبر قدر من المنفعة. ويعرفون المنفعة كما يعرفها " **بنثام** " بأنها هي التي تخلق الإشباع والسعادة. والإشباع عند الاقتصاديين مسألة ذاتية ليس لها معايير موضوعية وتختلف من شخص إلى آخر ؛ فقدر المنفعة الناتج من استهلاك سلعة معينة يختلف من شخص إلى شخص ؛ وذلك لاختلاف أذواق المستهلكين. فالاقتصادي يهتم برغبات الناس الفعلية ويفترض سيادة المستهلك.

إن الفرضية القائلة بأن معايير الإشباع ذاتية – غير مسلم بها على إطلاقها. وسيأتي الحديث عن ذاتية وموضوعية معايير السعادة ، وعلى أية حال فإن البحوث الاقتصادية في اعتقادي ليست ذات قيمة كبيرة في تحديد مفهوم السعادة ؛ بخلاف الحال بالنسبة لبحوث علم النفس والأخلاق ، بل إنها تعتمد على هذه البحوث في هذين المجالين.

مفهوم السعادة والقانون والسياسة :

لم يكن أثر " **بنثام** " في مجال الاقتصاد فقط ؛ ولكن كان أثره الأساس في مجال القانون والتشريع والسياسة ؛ فقد أسس القانون والتشريع على أساس المنفعة ؛ وكان لأفكاره هذه أثر كبير في الفكر المعاصر. واعتبر مبدأ المنفعة العامة معياراً لنقد القوانين وإصلاحها وإنشائها . وهذا يعنى أن تبرير القوانين والتشريعات يكون بالنتائج التي تترتب على تطبيقها. فإذا كانت القوانين والتشريعات تؤدي إلى سعادة المجتمع وتخدم مصالحه فهي مقبولة ؛ وإذا لم تكن كذلك فهي مرفوضة. وقديماً أشار ابن مسكويه إلى العلاقة بين مفهوم السعادة والسياسة بقوله " **ينبغي أن نعلم أن كل إنسان معد نحو فضيلة ما ، إليها أقرب وبالوصول إليها أحرى لذلك تعتبر سعادة الواحد من الناس غير سعادة الآخر ، لأجل هذا يجب على مدبر المدن أن يسوق كل إنسان إلى سعادته التي تخصه** ".[1]

مفهوم السعادة وعلم الأخلاق :

يحتل مفهوم السعادة مكانة كبيرة في علم الأخلاق المعياري " Normative Ethics " فهو أساس ما يعرف بأخلاق الفضيلة "Virtue ethics " وقد نما هذا الاتجاه نمواً مطرداً في الآونة الأخيرة ، وكذلك يمثل مفهوم السعادة الأساس لنظرية المنفعة

---

[1] عبد السلام عبد الغفار ، مقدمة في الصحة النفسية ، القاهرة ، دار النهضة ، ص 20 .

[1] تهذيب الأخلاق ، ابن مسكويه ، ص72 ، حققه ابن الخطيب ، المطبعة المصرية ومكتبتها ، ص 72.

العامة إلا أن الفيلسوف "كانت" أسس الأخلاق على مفهوم الواجب والنية الحسنة وأسسها راولز " Rawls " على مفهوم العقد.

لمحـة تاريخيــة :

سنتحدث في هذه اللمحة التاريخية عن مفهوم السعادة عند أرسطوطاليس وعند ابن مسكويه وفي الفكر الحديث عند " **بنتام** " **ومل** ". ولكننا لا نهدف في هذه اللمحة إلى استقصاء آراء كل هؤلاء الفلاسفة ، وسنكتفي بعرض أفكارهم الأساسية.

مفهوم السعادة عند أرسطوطاليس :

تناول "أرسطوطاليس" مفهوم السعادة في كتاباته الفلسفية بالدراسة والتحليل ولقد اهتم الدارسون قديماً وحديثاً بما كتبه أرسطوطاليس عن هذا المفهوم وشرحوه وعلقوا عليه ؛ ولكنهم اختلفوا في فهمهم لمفهوم السعادة عنده وأعطوه تفسيرات عدة وأقرب هذه التفاسير لمقاصده أنه : عدّ السعادة الغاية القصوى للإنسان ؛ وأنها مطلوبة لذاتها لا لشيء آخر ؛ وأنها تامة ومكتفية بذاتها وأنها تحوي الخير الأقصى وجديرة بالاختيار[2] ، ولكنه ليس من الواضح قوامها هل هو شيء واحد أو أشياء مختلفة ، ففي الكتاب الأول المسمى " **بالأخلاق النوخوماخية** " ذكر أن قوامها يعتمد على أمور كثيرة أهمها الفضائل الخلقية ، والفضائل العقلية ؛ ولكنه ذكر في الكتاب العاشر أن قوامها شيء واحد وأنها تطابق التأمل الفلسفي وحده.[1] ويرى أرسطوطاليس أن حدوث المصائب العظيمة للشخص تسلب صفة السعادة عنه ولا تسلب المصائب الصغيرة هذه الصفة عنه.[2]

مفهوم السعادة عند ابن مسكويه :

قال ابن مسكويه إن السعادة أفضل خير وهي تمام الخيرات وغايتها ؛ ولكنها تحتاج في مرتبتها الأولى من هذا التمام إلى أشياء في البدن وخارج البدن ؛ أما إذا بلغ الإنسان المرتبة العليا من السعادة فإنه لا يحتاج معها إلى شيء آخر.[3]
واستعرض رأيين متقابلين عن السعادة : رأي نسبه إلى أرسطو ، والآخر نسبه إلى فيثاغورس وبقراط وأفلاطون ثم خلص في النهاية إلى رأي اعتمده.[4] وقد ذكر ابن مسكويه في بداية حديثه عن آراء أرسطوطاليس رأيه القائل : بأن للسعادة مقومات لو اجتمعت في شخص صار السعيد الكامل ومن حصل له بعضها كان حظه من السعادة حسب ذلك ؛ وهذه المقومات هي : صحة البدن من سلامة الجوارح والحواس واعتدال المزاج والثروة والأعوان وأن تحسن أحدوثته بين الناس وينتشر ذكره بين أهل الفضل ويكثروا الثناء عليه وأن يكون ناجحاً محققاً أهدافه ومقاصده وأن يكون جيد الرأي صحيح الفكر سليم الاعتقادات [1] . وأخبرنا ابن مسكويه أن أرسطوطاليس علل هذا الرأي بقوله " **إنه يعسر على الإنسان أن يفعل الأفعال الشريفة بلا مادة مثل اتساع اليد وكثرة الأصدقاء وجودة البخت** ".[2]

---

(2) Happiness and the Limit of Satisfaction , Deal w. Hudson Row man & Little field Publishers, inc, London, 1996, p.64.

(1) Moral Concepts, ed. By Joel Feinberg, Oxford, Oxford University Press, 1969, p.49.

(2) Two Concepts of Happiness, Richard Kraut, Philosophical Review, 87, No.2, (April 1979), p171.

(3) تهذيب الأخلاق ، ابن مسكويه ص 90.

(4) المصدر نفسه ، ص 90-92.

(1) المصدر نفسه ، ص 90.

(2) المصدر نفسه ، ص 90.

ثم أورد الرأي الآخر الذي نسبه إلى أفلاطون ومن وافقه والذي أجمعوا فيه على أن قوام السعادة في قوى النفس الخلقية التي هي الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة وأجمعوا على أن هذه الفضائل كافية للسعادة ، ولا يحتاج معها إلى غيرها من فضائل البدن ولا ما هو خارج البدن ولم يضره في سعادته أن يكون سقيماً ناقص الأعضاء مبتلى بجميع أمراض البدن واستثنى من ذلك اختلال العقل وفساده[3]. ثم ذكر أن " **المحققون من الفلاسفة يحقرون أمر البخت ولا يؤهلون الأشياء خارج النفس لاسم السعادة ؛ لأن السعادة شيء ثابت لا متغير ، وأنها أرفع الأمور وأشرفها ولا يجعلون لما دون العقل والفضيلة فيها نصيباً** ".[4]

وذكر لأرسطوطاليس رأياً آخر قال فيه : إن السعادة في التخلق بأوصاف الله التي يحى الإنسان فيها حياة التأمل والنظر والفكر. وحاول أن يحل التعارض بين رأيي أرسطوطاليس بأن ذكر أن الرأي الأول يمثل المرتبة الدنيا من السعادة والرأي الثاني المرتبة العليا.

يقول ابن مسكويه : " **فالسعيد من الناس يكون في إحدى مرتبتين : إما مرتبة الأشياء الجسمانية : متعلقاً بأحوالها السفلى ، سعيداً بها ، وهو مع ذلك يطالع الأمور الشريفة باحثاً عنها مشتاقاً إليها متحركاً نحوها مغتبطاً بها. وإما أن يكون في مرتبة الأشياء الروحانية متعلقاً بأحوالها العليا سعيداً بها ؛ وهو مع ذلك يطالع الأمور البدنية ، معتبراً بها ناظراً في علامات القدرة الإلهية ودلائل الحكمة البالغة مقتدياً بها ناظماً لها مفضياً للخيرات عليها** ".[1]

" **يتعلق الإنسان في المرتبة الأولى بأحواله الجسمانية ، وهو في المرتبة الثانية يتحرر منها لما توفر له من حكمة ، فهو في المرحلة الثانية لا يفعل إلا ما أراده الله منه ولا يختار إلا ما قرب إليه ولا يخالفه إلى شيء من شهواته الرديئة. وهو الذي يرى جسمه وماله وجميع خيرات الدنيا التي هي من السعادات التي في بدنه والخارجة عنه كلها كلا عليه : إلا في ضرورات يحتاج إليها لبدنه الذي هو مربوط به لا يستطيع الانحلال عنه : إلا عند مشيئة خالقه** ".[2]

ثم ذكر ثلاث مراتب للسعادة هي :

(1) مرتبة يلبى فيها الإنسان رغبات البدن والحس ولكن باعتدال.

(2) مرتبة لا يكترث فيها برغبات الجسد وشهوات النفس إلا بما تدعو إليه الضرورة.

(3) المرتبة العليا مرتبة الفضيلة الإلهية المحضة التي لا يطلب فيها حظا من الحظوظ الإنسانية ولا ما تدعو إليه الضرورة ؛ فتكون أفعال الإنسان كلها أفعالاً إلهية ، وهذه الأفعال هي خير محض ، وأن يكون فعله لا يطلب به حظا ولا مجازاة ولا عوضاً ، ويكون فعله عين غرضه ؛ أي : ليس يفعل ما يفعله من أجل شيء غير ذات الفعل ؛ أي : لنفس الفضيلة ولنفس الخير لا لاجتلاب منفعة ولا لدفع مضرة ولا للتباهي وطلب الرياسة ومحبة الكرامة ؛ فهذا غرض الفلسفة ومنتهى السعادة ؛ إلا أن الإنسان لا يصل إلى هذه الحالة حتى تفنى إرادته كلها التي بحسب الأمور الخارجة؛ وتفنى العوارض النفسانية ؛ وتموت الخواطر التي تكون عن العوارض ؛ ويمتلئ سعاراً إلهياً وهمة إلهية ؛ ويمتلئ معرفة إلهية ؛ ويوقن بالأمور الإلهية.[1]

---

(3) المصدر نفسه ، ص 92

(4) المصدر نفسه ، ص 92 .

(1) المصدر نفسه ، ص 95.

(2) المصدر نفسه ، ص 97.

(1) المصدر نفسه ، ص 101.

والسعيد لا يخرجه من حد السعادة ولو ابتُلى ببلايا أيوب ؛ ومهما ترد عليه من النكبات والنوائب وأنواع المحن والمصائب لا يلحقه ما يلحق غيره من المشقة ؛ فهو يقدر على ضبط نفسه ولا تخرجه عن حد السعادة البتة . وقال ابن مسكويه : إن المراتب كثيرة بعضها فوق بعض ، وأسباب اختلاف مراتب الناس في السعادة يرجع إلى اختلاف طبائعهم وعاداتهم وفهمهم وعلمهم وهممهم وجدهم وشوقهم ومعاناتهم.[2]

إن ما قاله ابن مسكويه عن حقيقة السعادة كلام عميق وجذاب ويحتاج إلى وقفة تأمل ونظر. وإن حديثه عن السعادة ؛ على الرغم مما فيه من أفكار ثاقبة يحتوي على بعض المسالب التي سنكشف عنها ؛ فنظرية ابن مسكويه في السعادة كنظرية أرسطوطاليس يمكن أن تصنف على أنها نظرية للسعادة غالبة " Dominant " أي نظرية تغلب جانباً معيناً من الجوانب التي تسبب السعادة ؛ فهي تغلب جانب الفكر والتأمل بوصفها سبباً للحصول على السعادة ؛ فلكي يكون جانب الفكر والتأمل الجانب الغالب في حياة الإنسان عليه أن يجاهد رغباته ودواعي نفسه حتى تموت ويتحكم في إرادته حتى تفنى بالكلية ؛ هذا الفناء الذي قال به ابن مسكويه شبيه بالفناء الذي عبر عنه ابن تيمية ووصفه بفناء الإرادة ومعنى فناء الإرادة – الذي هو فناء الأنبياء والصالحين – هو أن تفنى إرادة الإنسان فيصير لا يحب إلا ما يحب الله ولا يريد إلا ما يريد الله ؛ فهو طائع لله طاعة مطلقة ؛ لكن هل يمكن أن تموت كل دواعي طباع الإنسان البدنية وتصير حياته حياة فكر وتأمل صرفة ؟ وهل يمكن أن يصير مخلوقاً يعيش بالفكر والنظر ؟ وهل يمكن أن يفعل الإنسان – كما ذكر ابن مسكويه لأجل الفعل ذاته لا لأجل غرض يناله من هذا الفعل ؟ لقد ذكر الغزالي أن القول بوجوب إماتة دواعي طباع الإنسان البدنية بالكلية " **غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيهات... وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية ؛ بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط** ".[1] وذكر أن هذه الدواعي ضرورية لحفظ النفس والنسل ؛ وهذا الرأي موافق للسنة النبوية ولرأي أرسطوطاليس ، وذكر الغزالي أيضاً أن من ادعى انتفاء الغرض عنده فقد ادعى الصفة الإلهية.

مفهوم السعادة في فلسفة بنتام ومل :

سنشير بطريقة موجزة إلى مفهوم السعادة عند بنتام " Bentham "ومل " Mill " ، "وسنترك التعقيدات والتغييرات التي طرأت على مفهوم السعادة في الفلسفة المعاصرة لحين نقاش مفهوم السعادة". يقول هذان الفيلسوفان بما يسمى بنظرية المنفعة العامة في الأخلاق.

تقول هذه النظرية : إن مقياس حسن الأفعال وقبحها ووجوب فعلها أو تركها يكون بما يترتب عليها من سعادة ؛ وما تؤدي إليه من شقاء وألم ؛ ويرى بنتام أن السعادة هي اللذة. ويعتقد أن اللذات تتفاضل. ولقد اخترع حسابا للتفضيل بين اللذات ؛ فقال : تفضل لذة على لذة أخرى إما لشدتها وقوتها أو لمدتها أو لأنها يقينية الحدوث أو لقربها الزمني أو لخصوبتها أو لصفائها أو لامتدادها ؛ فكلما كانت اللذة قوية وشديدة فضلها صاحبها على التي هي أقل قوة وشدة ، وكلما طالت مدتها فضلها صاحبها على اللذة التي تحدث لمدة قصيرة ؛ وكذلك إذا كانت اللذة متيقناً حدوثها ؛ فهي تفضل على اللذة التي لا نتيقن من حدوثها ؛ أو نشك في حدوثها. أيضاً تفضل اللذة التي يتوقع حدوثها في زمن قريب في المستقبل على اللذة التي يتوقع حدوثها في زمن بعيد في المستقبل ، واللذة ذات الخصوبة ؛ أي : التي تأتي بلذة غيرها ، تفضل على اللذة التي لا تأتي بغيرها ، فمثلاً لذة القراءة تفضل على لذة مشاهدة مباراة كرة قدم ، لأن لذة القراءة تأتي بلذة غيرها وهي لذة النجاح :

---

(2) المصدر نفسه ، ص 98.

(1) إحياء علوم الدين ، أبو حامد الغزالي ، جـ3 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1986 ، ص 62.

فاللذة غير الخصبة تستهلك نفسها ، أما اللذة الصافية فتفضل على اللذة غير الصافية ، واللذة الصافية هي اللذة التي لا يسبب النشاط المتصل بها ألما. ويعني " **بنتام** " بامتداد اللذة عدد الذين يستمتعون باللذة. فكلما كان عدد المستمتعين باللذة كبيراً فضلت على اللذة التي عدد المستمتعين بها أقل.

وهناك مشكلات تتصل بحساب اللذات هذه "لا نود مناقشتها" وتفترض أن اللذات يمكن أن تقارن ، وأنها لا تختلف بالنوع ؛ أما " **مل** " فقد قبل فرضية إمكان مقارنة اللذات ، ولكنه قال باختلافها في النوع ؛ فقد فرق بين اللذات من حيث النوع ؛ فقال : إن هناك لذات عليا " **ومثالها لـذة المعرفة ولـذة التذوق الفني** " ولذات سفلى "**ومثالها لذة البطن والفرج** ".

مفهوم السعادة :

يعرف البعض حال السعادة بضدها ويقولون : بضدها تتميز الأشياء ، والأحوال التي ضد السعادة كثيرة منها : الألم والهم والغم والضيق والكرب والعسر والحسرة والاكتئاب والحزن والقلق والقنوط والتوتر والضجر والملل والسأم والخوف والإحباط والأسف والخزي والعار والوحدة والغربة والشعور بالحقارة والدونية والشك والتشاؤم، فالسعادة عندهم خلو الإنسان من هذه الأحوال ، ويعرف هذا المفهوم للسعادة بالمفهوم السلبي مقابل المفهوم الإيجابي ، وهو كون حال المرء في غبطة وسرور وبهجة وابتهاج وارتياح وانشراح ولذة أو طمأنينة واستقرار بال أو رضا أو قناعة . ولقد تعددت المفاهيم المتقابلة للسعادة فهنالك مفهوم للسعادة يجعل من الضروري أن تكون السعادة ممتدة حتى تشمل حياة الفرد كلها وكل جوانبها ، ومفهوم يقابله فيه توصف لحظات من حياة الفرد بأنها سعيدة ؛ وهنالك مفهوم للسعادة يصف حال الفرد متلبساً بها متحققة له ؛ ومفهوم يشير إلى أنها ستتحقق له في المستقبل ؛ فهي الآن بالقوة وأن شروطها ستتحقق بالفعل ؛ وبهذا المعنى نصف الرجل التقي الصالح الذي يمر بأحوال ابتلاء وحزن بأنه سعيد ؛ لما سيؤول إليه حاله في الآخرة ؛ وهنالك تقسيم شائع بين الدارسين[1] لمفهوم السعادة وهو السعادة بالمعنى الذي استخدمه أرسطوطاليس " Eudacmonia " ومعناها المعاصر ، فالمعنى الأول يشير إلى شعور باللذة يصاحب نشاطاً يتصف بالفضيلة، والمعنى الثاني مجرد شعور باللذة يتمثل في حاله سيكولوجية معينة . وهناك نظرة تعد السعادة أمراً ذاتياً " Subjective " ولكنها تشترط بالإضافة لتحقيق رغبات الفرد أن يكون ما تحقق يتفق مع معايير الحياة الطيبة التي يُلزم الشخص نفسه بها. وهذه النظرة تختلف عن النظرة التي تعدّ معايير السعادة معايير موضوعية وخارج الذات.[2] وهنالك معنى رابع نسبه ابن مسكويه إلى أفلاطون وهي حال تتصف بها النفس ؛ ولو كانت لا تشعر بلذة ومبتلاة بأعظم البلايا. وابن مسكويه كما تقدم عرف السعادة تعريفات عدة ؛ كل تعريف يمثل مستوى من مستويات السعادة ؛ ولكن هذه المستويات لا تشمل مجرد الشعور باللذة أو مجرد حالة سيكولوجية ذهنية. وهذه المستويات هي كالآتي :

مستوى أدنى تلبى فيه رغبات البدن والحس ولكن باعتدال بالإضافة إلى الالتزام بالفضيلة.

مستوى أوسط لا يكترث فيه الفرد برغبات الجسد وشهوات النفس ؛ إلا ما تدعو إليه الضرورة.

والمرتبة العليا في الدنيا هي مرتبة الفضيلة الإلهية المحضة وحالة فناء الإرادة ؛ وفي هذه الحالة لا يتأثر الإنسان بالابتلاء ويؤدي الفعل لذات الفعل لا لحظ ناتج عنه.

---

[1] The Oxford Companion to philosophy, ed. Ted Honderech, p332-33, وانظر Happiness and the Limits of Satisfaction, pp11-12.

[2] Two Concepts of Happiness, p.176.

ومستوى رابع يمثل سعادة الآخرة الصافية التي لا تشوبها شائبة وذكر ابن مسكويه أن هنالك سلسلة متصلة " Continumum " من مستويات السعادة.

ولقد عرف سيد محمد نقيب العطاس السعادة بطريقة مماثلة لتعريف ابن مسكويه ؛ فجعل لها ثلاثة مستويات لم يكن من ضمن هذه المستويات مجرد الشعور باللذة ، فجعل المستوى الأول متصلاً بالأحوال السيكولوجية والدنيوية والتي يمكن وصفها بأنها عواطف وأحاسيس يتم إشباعها عن طريق السلوك القويم المتناغم مع الفضيلة ، والمستوى الثاني هو مستوى التحمل واختبار استقامة الفرد في السراء والضراء ، وفي هذا المستوى تضمحل احتياجات الفرد ، والمستوى الثالث تمثله السعادة في الآخرة وقمة سعادة هذا المستوى رؤية الله سبحانه وتعالى.[1]

سنذكر بعض الملاحظات المختصرة على هذه التعريفات ، فالتعريف المعاصر للسعادة –بأنها مجرد أحاسيس وعواطف– تعريف ذاتي لا يقصى الأحاسيس والشعور الناتجة عن النشاطات الهابطة ؛ ولا يلتزم هذا التعريف بوجوب موافقة شعور الفضيلة ، وتعريف مرتبة الفضيلة المحضة مثالي قد لا تتحقق أحواله في واقع الأمر. أما تعريف السعادة المتحققة في الحياة الآخرة بأنها سعادة مطلقة أمر جائز جاءت به الأخبار الصحيحة ، وسوف نرد على اعتراضات جان كزانوف التي تتخيل وجود سعادة مطلقة ، أما تعريف السعادة – بأنها حال يمكن أن يتصف به الفرد في حال التحمل الذي قد يصحبه ألم والذي يخلو من الشعور باللذة– فإنّه يصعب قبوله.

والتعريف الذي نختاره والذي هو موافق للسنة هو التعريف الأول : الذي تلبى فيه رغبات البدن والحس باعتدال ؛ بالإضافة للالتزام بالفضيلة.

السعادة والغاية القصوى للإنسان :

الغاية القصوى هي الغاية التي يطلبها الإنسان لذاتها ؛ وليس وسيلة لغيرها. إذا سألنا طالباً وقلنا له : لماذا تريد أن تذاكر ؟ يقول : لأنجح وأتحصل على شهادة جامعية ، وإذا سألناه : لماذا تريد الشهادة الجامعية ؟ يقول : لأني أريد أن أجد وظيفة ، وإذا قلنا له : لماذا تريد وظيفة ؟ قد يقول : لأ تحصل على مرتب. وإذا قلنا له : لماذا تريد المرتب "**النقود**" ؟ قد يقول : لكي أشتري طعاماً. وإذا قلنا له : لماذا تريد طعاماً ؟ قد يقول : لأني أجد لذة في ذلك. إنه من غير المناسب أن تقول له : لماذا تريد اللذة ، فاللذة مطلوبة لذاتها ؛ لأجل ذلك فهي غاية قصوى ؛ ولكن هل أن السعادة حقاً هي الغاية القصوى لكل إنسان ؟ السعادة بمعنى أن ينشد الإنسان اللذة أو حالة يحبها ويفضلها. يرى البعض أن الإنسان يهدف من حركته ونشاطاته وأفعاله إلى الحصول على أكبر قدر من اللذة والإشباع ، ويرون أن هم الإنسان السعادة التي هي عبارة عن اللذة والمتعة .

وهنالك فريق يرى أن هدف الإنسان ليس الحصول على اللذة والسعادة ؛ لكن هدفه التخلص من هموم معينة ؛ قال بهذا الرأي ابن حزم فأوضح ذلك في كتابه " **الأخلاق والسير** " ، يقول ابن حزم : طلبت غرضاً يستوي فيه الناس فلم أجد إلا واحدا وهو طرد الهم فلما تدبرته علمت أن الناس كلهم ... على اختلاف أهوائهم ومطالبهم وتباين هممهم وإراداتهم لا يتحركون حركة أصلاً إلا فيما يرجون به طرد الهم ولا ينطقون بكلمة أصلاً إلا فيما يعنون به إزاحته عن أنفسهم.[1]

إن ابن حزم يرى أن طرد الهم هو الغاية الأساسية والأولية للإنسان ، إنه الغاية التي يشترك فيها كل الناس. ويرى ابن حزم أن الغايات الأخرى للإنسان غايات ثانوية قد تكون الغاية منها همّاً لشخص دون شخص. أوضح ابن حزم ذلك بقوله " **إن**

---

(1) حقيقة السعادة ومعناها في الإسلام ، سيد محمد نقيب العطاس ، كولالمبور ، المعهد العالمي للفكر والحضارة الإسلامية ، 1995 ، ص 30 .

(1) الأخلاق والسير في مداواة النفوس ، ابن حزم ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، 1980م ، ص 14.

من الناس من لا دين له فلا يعمل للآخرة ، ومن الناس من أهل الشر من لا يريد الخير ولا الأمن ولا الحق ، وفي الناس من يؤثر الخمول بهواه وإرادته على الصيت ، ومن الناس من لا يريد المال ككثير من الأنبياء والزهاد والفلاسفة... ومن يطلب هذه الأشياء لا يطلبها لذاتها ولا للذة المصاحبة لها بل يطلبها ليطرد الهم عن نفسه من فوتها. فقال : "إنما طلب المال طلابه ليطردوا به هم الفقر... وإنما هش لسماع الأخبار ومحادثة الناس ليطردوا به هم التوحد... وإنما أكل من أكل وشرب من شرب ونكح من نكح ولعب من لعب ليطردوا عن أنفسهم أضداد هذه الأفعال وسائر الهموم ".[1]

ويرى ابن حزم أن الذي يطرد الهم –حقيقة– العمل للآخرة.[2] إن ما نشاهده من سلوك كثير من الناس يؤيد نظرية ابن حزم هذه إلى حد كبير ؛ فإن الطالب يعود من الدراسة وله همّ قضاء الواجبات واستذكار الدروس وهمّ النجاح ، والكبار لهم هموم العمل وتوفير حاجات الأسرة والقيام بواجبات الصلات الاجتماعية والمحافظة على الصحة وتحسين أوضاعهم المالية والأدبية ونجاح أحزابهم السياسية وتحقيق أهدافهم ومثلهم في الحياة والقيام بواجباتهم الدينية وغيرها من أسباب طرد هموم الدنيا والآخرة؛ فهم عادة لا يفكرون في الأشياء التي تجلب لهم اللذة والسعادة ؛ ولكن يفكرون في طرد الهموم وقضاء الحاجات والواجبات ؛ هذا لا يعنى أن تحقق هذه الأغراض لا يصاحبه لذة وشعور بالرضا والسعادة ، ولا يعنى – وهنا قد نخالف ابن حزم – أن جانباً ممّا نقوم به من نشاط قد نؤديه بغرض اللذة والمتعة. من ناحية أخرى ، فإنه قد تكون لبعض الناس كالدعاة والمصلحين وغيرهم هموم تشغل جل تفكيرهم فلا تدع لهم مجالاً للتفكير في الحصول على متع الحياة ؛ والناس يختلفون ؛ فيرى بعضهم أننا يجب أن نوجه الطاقات في مؤسسات الدولة – الطبية والاجتماعية والاقتصادية والتعليمية وفي الجمعيات الخيرية والإصلاحية لطرد هموم الناس أكثر من جلب اللذات لهم ؛ فنحارب المرض والفقر والجهل والإدمان ونحل مشكلات الأسرة والشباب الخ...

صحيح – كما ذكر ابن حزم – أن ما يشغل معظم الناس طرد الهموم عن أنفسهم أكثر من جلب المنافع لها ، لكننا – كما ذكرنا – نجد بعض الناس يخطط ويهدف إلى تحقيق لذاتها ، كما أن معظم الناس يهدف في بعض أوقات حياته إلى تحقيق لذات معينة مثلاً باختيار مكان لقضاء عطلته السنوية أو قضاء عطلة نهاية الأسبوع ، ولكننا نجد بعض الناس كالدعاة والمصلحين والمجاهدين لا يعيرون أمر جلب اللذات بالاً ، فنجد أحدهم لا يأكل إلا إذا شعر بالجوع والضعف ، ولا يذهب لينام إلا إذا شعر بالتعب والنعاس.

وأخيراً هنالك سؤال يمكن طرحه وهو هل هدف الإنسان هو نيل السعادة سواء كان ذلك بمفهومها الإيجابي أو السلبي ؟ على الرغم من أن مفهوم السعادة مفهوم فضفاض ؛ فإنه من الصعب أن نصف شخصاً بالسعادة دون أن يحس بشعور إيجابي من لذة أو متعة أو ارتياح ، ومن الصعب أن نصفه بالسعادة وهو في حالة ألم وعناء إلا إذا اعتبرنا ما سيؤول إليه حاله ؛ ولكن من ناحية أخرى ؛ فالإنسان قد يسعى لتحقيق قيمة خلقية أو دينية تحت ظروف ألم ومشقة ومعاناة مثل قيمة العدالة ؛ وقد يريد تحقيق العدالة من أجل العدالة ذاتها.

ولا ينبغي أن يقال إنه فعلها ليزيل عن نفسه عدم الرضا الناتج من عدم تحقيقها. أو أن يقال إن عدم الرضا إذا لم يفعلها يكون أكبر من المعاناة الناتجة من فعلها. ولا أن يقال إنه فَعَلَها لما يجد من راحة في تحقيقها ، وقد يلزم من فعل فضيلة – في واقع الأمر – راحة ومن عدم فعلها ألم ، ولكن ليس بالضرورة أن يكون هذا قصد الفاعل ولا هدفه من تحقيقها. إن كان

---

(1) المصدر نفسه ، ص 15.

(2) لعل مما يؤيد ابن حزم قوله تعالي { **لقد خلقنا الإنسان في كبد** } وقوله { **الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن** }.

سببه الذي يعنيه هو تحقيق فضيلة العدالة في ذاتها لا لما يلزم عنها من نتائج[1] ، والغريب أن ابن مسكويه قد أشار إلى هذا المعنى ، ولكنه عدّه ضمن مراتب السعادة ، وكذلك عدّه محمد نقيب العطاس معنى من معاني السعادة ، إلا أن آخرين قد اشترطوا في السعادة شرط اتفاقها مع الفضيلة ؛ بالإضافة إلى ذلك إنتاجها لذة وهذا الذي اعتمدناه.

هل معايير السعادة موضوعية أم ذاتية ؟

هناك من يرى أن معايير السعادة ذاتية ، ومن يرى أن معاييرها يجب أن تكون موضوعية ؛ فالقائلون بالمعايير الذاتية للسعادة يرون أن الحكم على شخص بالسعادة يجب أن يكون بمعرفة رأي ذلك الشخص وشعوره ؛ فإذا اعتقد وشعر بالسعادة فإنه يكون في الحقيقة سعيداً بغض النظر عن رأينا فيه.

أما القائلون بموضوعية معايير السعادة فيرون أن الإنسان قد يعتقد أنه سعيد ، ولكن يكون في حقيقة الأمر غير سعيد ؛ فشعوره بالسعادة ليس مبرراً كافياً لكي نطلق عليه صفة السعادة ، لأنه قد يكون غالطاً أو مخدوعاً.

واعترض بعض القائلين بأن معايير السعادة ذاتية على القائلين بموضوعيتها بحجج عدة منها أنها كانت سبباً في التدخل في حياة الآخرين وسلب حرياتهم والتعدي على إنسانيتهم والسيادة على ذواتهم. وأنها نوع من الاستعلاء الزائف ، وتمثل الموضوعية عند كثير من فلاسفة ما بعد الحداثة ضيق الأفق والتعصب والعنصرية والعرقية والغرور والسطحية وعدم الأمانة العلمية والتسلط والهمجية وعدم التسامح.

ويقولون إن الفرد أقدر الناس على معرفة رغباته وما يسعده وأن التدخل في شئونه بحجة إسعاده كثيراً ما يقود إلى تعاسته وحرمانه ، ولا حق لأحد أن يقول لغيره هذا يسعدك على الرغم من أن الآخر لا يشعر بأن هذا الشيء يسعده.

ويقولون أيضاً إذا كان هنالك ما يسعد الناس فاذكروه لنا بالتحديد وبينوا لنا لماذا اختلف الناس حول السعادة ؛ فمنهم من يراها في الأمور الروحية ؛ ومنهم من يراها في الأمور العقلية ؛ ومنهم من يراها في الأمور الحسية ، إن بعض أصحاب اتجاه الذاتية لبراليون وبعضهم نسبيون وبعضهم لا عقلانيين.

نقول في الرد على الذاتيين ، وبالله التوفيق ، ليس ضرورياً أن يناقض القول بالموضوعية التسامح والحرية ، أما القول بأن الناس اختلفوا حول ماهيتها فهو ليس بحجة؛ لأنه من الممكن أن يكون من بين المختلفين من هو على حق. أما المطالبة بتحديد الأشياء التي تسعد الناس ؛ فطلب معقول ، ولكن قد تكون الإجابة عنه صعبة . سنجيب عن هذا السؤال ضمن ذكر الحجج التي تعضد القول بالموضوعية عموماً.

إن للإنسان طبيعة معينة تميزه عن غيره من المخلوقات ، وإن هنالك نشاطات وأفعالاً تناسب هذه الطبيعة ونشاطات لا تناسبها ، وهذه الطبيعة تجعل للإنسان حاجات ومطالب... وتجعله بالضرورة يصبو لتحقيق هذه الحاجات ويكون في حالة توتر مادامت لم تحقق له ، وعند تحققها يزول توتره ويحس بالرضا.

---

[1] – يقول أبو علي الجبائي : وجدت الرجل في الشاهد قد يرشد الضال لحسنه ولنفع الغير أو دفع الضرر عنه من غير أن يكون له فيه نفع ولا ضرر ، ذلك أنه قد جرّد فعله من سائر الدواعي التي تدعو إلى الأفعال ؛ نحو: أن يقتضي أن له ثواباً في ذلك أو عليه في تركه عقاب ، لأنه قد يفعله من لا يعلم ذلك ولا يؤمن بالمعاد ، فضلا عن أنه لا ينتظر ولا يرجو على الإرشاد شكوراً ؛ إذ قد يفعل بمن لا يرجو أن يلقاه أبداً ، بل قد يفعله بمن لا يعرف موضع هذه النعمة حتى يشكره عليها نحو الأطفال والمجانين ، ولا يتوقع إن لم يفعل ذلك ذما ؛ لأن أحداً لا يعرف حاله ، ثم إن ذلك قد لا يخطر له على بال ، ولا يقال إن في قلب المرشد رقة فيهتم بضلاله عن الطريق وبما يلحقه من الضرر فيفعل الإرشاد لدفع الضرر عن نفسه ، ولا لأنه يسرّ بنفعه لأنه قد يفعل الإرشاد من لا يخطر على باله أيرقّ قلبه أم يغلظ ، أيسر لذلك أم يغتم. "المغنى الجزء6، العدل والتوحيد ص324 ، وانظر أحمد محمد صبحي ، الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي ، القاهرة ، دار المعارف ، ص151–152 بدون تاريخ".

هنالك لذات تحصل من نشاطات هابطة كتناول المخدرات والممارسات الجنسية القبيحة والتلذذ بضرر أو تعذيب الآخرين ولا يجد ممارسوها غضاضة في ممارستها.

يمكن مقارنة اللذات والسعادة ؛ فهنالك طريقة حياة ونشاطات تحدث سعادة أعظم من طريقة حياة أخرى. والدليل على ذلك أن الفرد إذا جربها سيفضلها ويحكم على أنها أعظم من غيرها.

هنالك أشياء يكاد يجمع الناس على أنها من أسباب السعادة مثل الصحة والمحبة والصلات الحسنة بالآخرين.

على الرغم من أن للسعادة معايير موضوعية إلا أنه لا يجوز وصف شخص بأنه سعيد دون أن يشعر هو بالسعادة.

مقومات السعادة وأسبابها :

تعرف السعادة بأنها رضا عام عن الحياة بتحقق الرغبات والأهداف والمقاصد أو بتحقق الذات ، وهذا الرضا يتمثل في الرضا عن الحياة الاقتصادية، ومعناها تحقق الضروريات والحاجات والكماليات والشعور بالصحة والرضا عن الحياة الأسرية العلاقة الزوجية – والرضا عن العمل والعلاقات الاجتماعية – الصداقة ورضا الفرد عن سلوكه وتصرفاته الأخلاقية والدينية وأداء الواجبات المتصلة بهما والرضا عن الوضع السياسي والاجتماعي عامة والأمن على النفس والمال والعرض والأمن العقدي بزوال الجهل والشكوك والأوهام والثبات على بعض المعارف عن الكون والإنسان والمجتمع.

الحياة الاقتصادية : تحقق الضروريات والحاجات والكماليات بالأكل والشرب والملبس والمسكن وسبل التنقل والعلاج والتعليم ووسائل الترفيه وقضاء وقت الفراغ . وفي حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) أشار إلى هذا النوع من مقومات السعادة " **أربعة من السعادة : المرأة الصالحة والمسكن الواسع والجار الصالح والمركب الهنيء** ".[1]

الصحة : إن من أهم مقومات السعادة الصحة فقد كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يدعو الله أن يسلمه من عوائق السعادة والأمور السلبية كالمرض والفقر ، فكان من دعائه " **اللهم عافني في سمعي ، اللهم عافني في بصري ، اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر ، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، لا إله إلا أنت** ".[2]

والصحة عبارة عن سلامة الجوارح والحواس والخلو من الأمراض والعاهات وعدم الضعف والعجز ؛ كما أنَّ من أهم مقومات السعادة الضرورية الصحة العقلية والنفسية.[1]

العلاقة الزوجية : يقول الله تعالى : { **وجعل لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة** } [الروم : 21].

يقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) " **الزواج من سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني** "[2] " **هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك** "[3] " **تزوجوا الولود الودود** "[4] إن المتزوجين أكبر سعادة – بوجه عام – من العزاب والأرامل والمطلقين.[5]

---

(1) أخرجه ابن حبان في صحيحه ج 9 حديث رقم ، 4032 عن سعد بن أبي وقاص.

(2) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، ج9 ، ص104.

(1) تتمثل الصحة النفسية في أن يكون الإنسان خالياً من الأمراض العصبية كالقلق النفسي والعصاب القهري والوسواس والفزع وخالياً من الأمراض الذهانية كالفصام والبرنويا ، وتشمل الكآبة والهوس الدوري والكآبة الذهنية وغيرها والأمراض الذهانية العضوية كالهذيان وذهان إلتهابات المخ وذهان الصرع وذهان الكحول وغيرها ويكون خالياً من أمراض التخلف العقلي والأمراض السايكوسوماتية والإضطرابات السايكلوجية والاجتماعية وغيرها.

(2) جاء في الترمذي في جامعه كتاب 9 باب النكاح من سنن المرسلين ، 421/5.

(3) جاء في ابن حبان في صحيحه حديث رقم 6518 عن جابر بن عبد الله.

(4) أخرجه ابن حبان في صحيحه عن أنس بن مالك الجزء التاسع حديث رقم 4028 ، وحديث رقم 4056 ، وعن معقل بن يسار 19 حديث رقم 4057.

(5) سايكولوجية السعادة ، مايك أرجابل ، ترجمة فيصل عبد القادر يونس ، عالم المعرفة ، الكويت ، 1987م.

ولكن ليس ما يسعد الزواج ؛ ولكن نوعية الزواج. ، والرجال يحصلون على إشباع أكثر من الزواج إذا ما قورنوا بالنساء[6] . ومما يساعد على السعادة الزوجية استعداد الزوجين للمساعدة العملية والصحبة وكثرة الوقت الذي يقضيه الزوجان معاً والاتفاق على المسائل المشتركة كالأمور المادية والبحث عن الحلول للمشاكل التي تطرأ على العلاقة والدعم المتبادل.[1]

الصداقة والإخاء : الإخاء ضروري لحياة الفرد ولبناء المجتمع ومؤسساته ، وضروري للبناء الحضاري للأمة الإسلامية ، وعليه تعتمد سعادة الفرد والمجتمع . فالإنسان لا يمكن أن يحقق ذاته ورغباته إلا في جماعة ولا يستطيع تحقيق القيم الخلقية إلا في جماعة ، وقد قيل : الإنسان كثير وقوي بإخوانه وأصدقائه. إن كل شخص محتاج إلى صديق عند حسن الحال وسوء الحال ، فعند سوء الحال محتاج إلى معونة الإخوان وتسليتهم عند الهموم ، فالأخ يبث همومه لأخيه ؛ فينفس عنها ، وعند حسن الحال يفرح بهم ويأنس بهم ، والإخاء زينة الإنسان يجد في حبه للآخرين وعونه لهم سعادة لا تدانيها سعادة ، لأنه يشعر بأنه سبب سعادتهم وتخفيف آلامهم ، يقول (صلى الله عليه وسلم) : " **ثلاثة من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله** ".[2] قال الغزالي : الأخوة محبة والمحبة تتبع المواءمة والملاءمة والموافقة ، إن أخوة الإسلام تنتج من العقيدة والفكر المشترك ومن وحدة الهدف والغاية. ولعل أول ما يوفره الأصدقاء بعضهم لبعض التحسين الفوري للحالة المعنوية بالمساعدة العملية والدعم الاجتماعي في صورة تعاطف أو نصائح والمشاركة في الأنشطة[3] ، فالإسلام يحث على السلام عليه إذا لقيه ؛ وعيادته إذا مرض ويتفقده ؛ ويواسيه ؛ وينصحه ؛ ويدافع عنه ، كما يحث على الدعاء والوفاء والإخلاص له وإظهار المحبة له " **أن يخبره إذا أحبه أنه يحبه** ". فاكتساب الأصدقاء والحفاظ عليهم يعتمد على القدرة على التدعيم وأداء الالتزامات والمجاملة والتعبير عن المحبة.[4]

السيرة الحسنة بين الناس : إن من الأمور التي تدخل السعادة والرضا في نفس الإنسان السمعة الحسنة والسيرة الطيبة بين الناس ، لكن المؤمن لا يبتغي ابتداء من أعماله ثناء الناس عليه ولكن ثناء الناس عليه ، قد يلزم من أفعاله دون قصد منه لذلك، وواجب على أفراد المجتمع الثناء على المحسنين منهم . ويختلف مفهوم السيرة الحسنة عن مفهوم الشهرة والصيت التي يعتبرها البعض من أسباب السعادة ؛ والتي يعبرون عنها بأنها شعور الشخص باعتراف الناس بما قدم من أعمال واللذة الناتجة ؛ والتي تكون باعثة للعمل ؛ فإذا ساعد الفقراء فإنه يفعل ذلك لكي يقال إنه شخص محسن وإذا ألقى حديثاً أو كتب كتاباً أو بحثاً فإنه يريد أن يقال إنه عالم أو مفكر أو أديب أو غيرها من عبارات الثناء والمدح. ، وقد تصل رغبة الإنسان لنيل المكانة والشرف إلى حب العلو والسيطرة والحصول على القوة والنفوذ. ؛ هذه الرغبات كاذبة ومنحرفة وينهى عنها الدين ؛ فالإسلام ينهى عن التطلع إلى الشهرة والصيت وحب العلو ويحث أن يكون العمل لله.

لقد انتشر بين المسلمين طلب الشهرة والصيت والمكانة ، وصارت حظوظ الدنيا هي التي تدفع معظمهم للعمل ، وعلى هذا نربي أبناءنا ؛ وإلى هذا تهدف معظم وسائل أعلامنا ومؤسساتنا ، ولكي نتغلب على هذا الداء العضال نحتاج إلى جهاد للنفس كبير وإلى تربية أبنائنا وأنفسنا لكي نخلص العمل لله. يقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) " **من سمع سمع الله به ومن**

---

(6) المصدر نفسه ، ص 31.

(1) المصدر نفسه ، ص 31.

(2) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان حديث رقم 15 وأخرجه مسلم في الإيمان حديث رقم 60 ، وأخرجه الترمذي في الإيمان حديث رقم 2548.

(3) المصدر نفسه ، ص 33.

(4) المصدر نفسه ، ص 33.

يرائي يرائي الله به "[1] ويقول " **إن الله تعالى يحب العبد التقي الغنى الخفي** "[2] وفي القرآن { **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً** } [القصص : 83].

العمل : يعتمد الرضا عن العمل على العلاقات الإنسانية داخل التدرج الوظيفي ؛ فالمرؤسون يكونون أكثر سعادة في ظل أساليب معينة من الإشراف ، وخاصة تلك التي تتصف بالتقدير من جانب المشرف والتشجيع على المشاركة في اتخاذ القرار ، ومما يسبب عدم الارتياح في العمل ممارسة المشرفين على العمل ضغوطاً من أجل مزيد من العمل أو عندما يعطون أوامر تلقائية دون استشارة العاملين.[1] ومن أسباب الرضا عن العمل الأجر المجزى والمقدرة والكفاءة على أدائه والرغبة فيه. وكذلك تعتمد السعادة على حسن العلاقة بين الفرد والأقارب والجيران والأطفال والآباء والناس عموماً ، إن الرضا العام عن الحياة والشعور بالنجاح والإنجاز يؤدي إلى السعادة ، وكلما حقق الإنسان أهم رغباته ازدادت سعادته ولكن إذا قارنا سعادة الأفراد بعضهم ببعض فإن الرضا بالحال قد يكون في مستوى أدنى من الإنجاز ؛ فمستوى الحياة ونوعيتها والإنجاز الذي يحققه الفرد يحدد قوة السعادة وشدتها ؛ فقديماً قال سقراط : أريد أن أكون سقراطاً غير راض من أن أكون حيواناً راضياً ؛ فنوعية الحياة تؤثر في مستوى السعادة ، لكن هنالك تقعيداً في هذه العلاقة ، لأن نوع النشاط نفسه قد يحدث سعادات متفاوتة باختلاف الأشخاص ، لأن بعض التجارب تحتاج إلى من يتذوقها ، ويحدث ذلك عادة بممارستها والتعود عليها ، وقد يحتاج إلى نوع من المجاهدة والصبر عليها في بداية الأمر. وقد اختلف المفكرون في النشاط الذي يحدث أعظم قدر من السعادة ؛ فمنهم من رأى السعادة في تحقيق اللذات الحسية ، ومن رآها في قمع الشهوات بالكلية والزهد في الحياة المادية حتى يحيا حياة روحية خالصة ، ومنهم من يرى السعادة في حياة الفكر والتأمل والنظر، لكن السعادة في اعتقادنا لا تقتصر على جانب واحد من حياة الإنسان ؛ فإنها تشمل كل جوانب حياته المادية والنفسية والعقلية والروحية والذوقية والسلوكية . فجانب الحياة المادي ينبغي أن يشمل ما هو ضروري وحاجي وكمالي ويتحقق الجانب النفسي من حياة الإنسان مثلاً بصحته النفسية بزوال الخوف والشعور بالأمن والطمأنينة ووجود علاقات اجتماعية للفرد وصداقات ؛ وذلك بمشاركته للآخرين أفراحهم وأتراحهم ومشاركتهم له في ذلك وفي محبته لهم ومحبتهم له. وتتمثل الصحة النفسية في الاتزان الانفعالي والعاطفي ؛ وذلك بتجنب الغضب والحسد والحقد مثلاً وأن يتجنب كل عاطفة رذيلة وألاَّ تخلو نفسه من العواطف المناسبة في المواقف المثيرة لتلك العواطف بأن يتسم بالرحمة والشفقة والمحبة وغيرها من العواطف النبيلة.

ويشمل جانب الحياة الذوقية تذوق الجمال والفن والأدب ويعدّ هذا الجانب من الحياة عادة جانباً كمالياً ، ويختلف الناس في السعي لتحقيقه وطلبه. ويتمثل جانب الحياة العقلية في التأمل والفكر والنظر وسعي الإنسان لاكتساب العلم والمعرفة ورغبته في الكشف عن الحقائق وفي حل المسائل والمعضلات والمشكلات وغوامض الأمور وفي زوال الشكوك والتخلص من التيه الفكري والحيرة ؛ إنها الرغبة في الأمن العقدي والمعرفة ، النافعة واللذة المصاحبة لتلك المعرفة وأعلى مراتب الأمن العقدي هي معرفة الله ومعرفة ما شرع وأخبر.

وهنالك المقومات الروحية التي تشمل العبادات الظاهرة كالصلاة والصوم والحج والزكاة والعبادات الباطنية كالإيمان وإخلاص النية والتوجه بالعمل لله سبحانه وتعالى وما يتبع تلك العبادات والطاعات من أحوال وتجارب ولذات وما يشعر به المؤمن من متعة وطمأنينة وأنس ورضا نتيجة لذلك[1] . فلا ينبغي أن يركز الإنسان على الجانب الروحي دون المادي ولا المادي

---

(1) انظر صحيح ابن حبان عن جندب البجلي ، جـ2 ، حديث رقم 406.

(2) جاء في الموطأ بمثله ، كتاب 56 حديث 25224 ما جاء في التقى.

(1) سايكولوجية السعادة ، مايكل ، ص 38.

(1) – يقول ابن القيم : أما محبة الرب سبحانه فشأنها غير هذا الشأن ؛ فإنه لا شيء أحب إلى القلوب من خالقها وفاطرها ، فهو إلهها ومعبودها ووليها ؛ فمحبته نعيم النفوس وحياة الأرواح وسرور النفوس وقوت القلوب ونور العقول وقرة العيون وعمارة الباطن ؛ فليس عند القلوب السليمة

دون الروحي ولا العقلي أو الذوقي دون الجوانب الأخرى ، لأن الإنسان يحتاج إلى تلبية كل الجوانب ، فإن الإنسان لا يمكن أن يحيا حياة عقلية أو ذوقية بحتة ؛ فمن المجرب والمشاهد أنه إذا نال من إحداها حداً معيناً فإنه قد يمله ويكون عائد الاستمتاع به متناقصاً . ولقد نهى الرسول ε الصحابة الذين أرادوا ترك الأكل والنوم والزواج. إن طبيعة الإنسان تحتم عليه تلبية كل الجوانب . من ناحية أخرى فإن الناس متفاوتون في رغبتهم وتذوقهم لجانب دون جانب ؛ كما أن بعض الجوانب قد يكون أكثر لذة ومتعة من الجوانب الأخرى. فقد ذكر أحد العباد عن جانب العبادة مقارناً له بجانب الثروة والماديات فقال : لو علم الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف. وقد يحتاج الإنسان إلى شيء من الممارسة والتعود حتى يتذوق جانباً من الجوانب.

ويشمل الجانب الأخلاقي والسلوكي التزام الإنسان بالقيم الأخلاقية كالصدق والعدل والإحسان والطهارة والعفة والشجاعة والأمانة والرحمة ؛ إن الالتزام بهذا الجانب يُحدِث رضى وسعادة في نفس صاحبه ويحدث آثاراً حسنة في حياته وحياة غيره من الناس. كما أن من مقومات السعادة أن يعيش الإنسان في مجتمع فاضل تتحقق فيه قيم معينة كقيم التكافل والأخوة والمحبة والرحمة والشورى والعدل والطهارة والوحدة والنجدة والتناصح والتآزر والتناصر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيثار والإيمان والحرية والتقوى والعلم والمعرفة وغيرها من القيم النبيلة.

ولكن مهما حقق الإنسان من مقومات الحياة المادية والذوقية والروحية والسلوكية والعقلية والنفسية ، ومهما حقق من رغبات وأهداف ، ومهما حقق من نجاح ؛ فإنه لن يشعر بالسعادة إذا لم يصاحب ما حقق وأنجز شعور بالرضا والقناعة ؛ لأن مطالب الإنسان قد لا تنتهي ، ولأن الإنسان قد يهتم بتحقيق أمر يرى فيه قمة سعادته كالحصول على درجة علمية معينة أو الزواج من فتاة معينة ؛ ولكنه عندما يحصل على مقصوده تقل رغبته فيه ولا يحس بسعادة وهو حاصل له ولكن الإنسان القانع الراضي يحس بالنعم التي أنعم الله بها عليه فيكون سعيداً بذلك.

وسائل السعادة :

إن مقدرة الفرد على تحقيق رغباته وأهدافه ومقاصده لا تعتمد فقط على سعيه وجهده؛ ولكنها تعتمد أيضاً على قدراته وعلى الظروف المحيطة به . من ناحية أخرى ؛ فإن السعي يتطلب [1] :

- اكتساب العلم بما يسعد.
- محبة الإنسان لما علم.
- معرفة الأسباب التي تحقق ما علم وأحب.

والأرواح الطيبة والعقول الذاكية أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا أسر ولا أنعم من محبته والأنس به والشوق للقائه ، والحلاوة التي يجدها المؤمن بذلك فوق كل حلاوة ، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتم من كل نعيم، واللذة التي تنالها أعلى من كل لذة ، ومتى ذاق القلب ذلك لم يمكنه أن يقدم عليه حباً لغيره ولا أنساً به ، وكلما ازداد حبا ازداد له عبودية وذلا وخضوعاً ورقا له وحرية عن رق غيره . فالقلب لا يصلح ولا ينعم ولا يبتهج ولا يتلذذ ولا يطمئن ولا يسكن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه ، ولو حصل له جميع ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن إليها ولم يسكن إليها ؛ بل لا تزيده إلا فاقة وقلقاً حتى يظفر بما خلق له وهيأ له من كون الله وحده نهاية مراده وغاية مطالبه ، فإن فيه فقرا ذاتياً إلى ربه وإلهه من حيث هو معبوده ومحبوبه وإلهه ومطلوبه ، كما أن فيه فقراً ذاتياً من حيث هو ربه وخالقه ورازقه ومدبره . وكلما تمكنت محبة الله من القلب وقويت فيه أخرجت منه تألهته لما سواه وعبوديته له. وما من مؤمن إلا وفي قلبه محبة الله تعالى ، وطمأنينة بذكره ، وتنعم بمعرفته ، ولذة وسرور بذكره ، وشوق إلى لقائه ، وأنس بقربه ، وإن لم يحس به لاشتغال قلبه بغيره وانصرافه إلى ما هو مشغول به ، فوجود الشيء غير الإحساس والشعور به وقوة ذلك وضعفه وزيادته ونقصانه هو بحسب قوة الإيمان وضعفه وزيادته ونقصانه . وعن أحوال المحبة لله والأنس به أشار ابن القيم أن بعض الواجدين ذكروا " **أنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا أنهم لفي عيش طيب** " وقال آخر : " **مساكين أهل الغفلة خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها** ". وقال آخر : " **لو علم الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف** ".

[1] إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، ابن قيم الجوزية ، الجزء الثاني ، مطابع دار التراث العربي ، القاهرة ، 1983م ، ص 141.

- السعي لتحقيق هذه الأسباب.
- الصبر ومجاهدة النفس في السعي لتحقيق هذه الأسباب.

قال ابن القيم " **ومعلوم أن كمال العبد هو بأن يكون عارفاً بالنعيم الذي يطلبه والعمل الذي يوصل إليه ، وأن يكون مع ذلك فيه إرادة جازمة لذلك العمل ومحبة صادقة لذلك النعيم ؛ وإلا فالعلم بالمطلوب وطريقه لا يحصله إن لم يقترن بذلك العمل ، والإرادة الجازمة لا توجب وجود المراد إلا إذا لازمها الصبر** ".[1]

على المسلم أن يسعى بشتى الوسائل لنيل السعادة ويرجو الله ويدعوه أن يتم له ذلك في الدنيا والآخرة ، وفي الدعاء { **ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار** } [البقرة : 201]. وعلى الإنسان أن يسعى بالفكر والروية قبل العمل ، وعليه أن يكتسب المعرفة ، يقول ابن القيم " **إن الإنسان قد يحب الضار وقد يحب النافع** ". إن النافع يعلم بالشرع والعقل ، ولكن أصدق الطريقين إليه الشرع لخفاء صفات الأفعال وأحوالها ونتائجها ؛ وأن العالم بذلك على التفصيل ليس هو إلا الرسول ε ، فأعلم الناس وأصحهم عقلاً ورأياً واستحساناً من كان عقله واستحسانه وقياسه موافقاً للسنة.[2] وأن يبذل الجهد والمثابرة والصبر ؛ يقول الله تعالى : { **ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين** } [البقرة : 153]. وأن يقابل إحباطات الحياة وابتلاءاتها بروح عالية ما وسعه ذلك ، وأن يكون أمله في الله كبيراً " ولا يقنط من رحمته " { **إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** } [يوسف : 87]. وأن يكون في حال رجاء دائم في أن يحقق الله له خيري الدنيا والآخرة { **فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون** } [النساء : 104]. وأن يستشير في أموره أهل الرأي والمشورة وأن يستخير الله عندما يقدم على أي أمر من الأمور فإذا أخذ بالأسباب توكل على الله وأقدم ولم يتردد وكان قوي الإرادة والعزيمة ؛ وأن يلح ويكثر من الدعاء { **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون** } [البقرة : 186]. ولقد وردت أدعية كثيرة يجدها القارئ في كتب الأذكار المختلفة . ومن أسباب السعادة لزوم الاستغفار، قال (صلى الله عليه وسلم) : " **من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً** ".[1] إن مما يؤلم الإنسان وينقص سعادته اقترافه الذنوب وشعوره بالذنب، ولكن المؤمن يزول منه هذا الشعور عندما يقرأ قول الله تعالى : { **ألم يعلموا أن الله يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التوّاب الرحيم** } [التوبة : 104]. فالله سبحانه وتعالى يمدح التائبين المستغفرين ويعدهم بالمغفرة : { **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون** } [آل عمران : 135]. ومن أسباب السعادة ذكر الله { **ألا بذكر الله تطمئن القلوب**} [الرعد : 28]. ومن أسباب السعادة الإيمان بالله والتوكل عليه يقول الغزالي " **إن التوكل هو ثمرة التوحيد وهو عبارة عن اعتبار المؤمن أنه لا فاعل إلا الله واعتقاده أن الله متصف بتمام العلم وتمام القدرة على كفاية العباد وأنه يتصف بتمام العناية والعطف والرحمة**"[2] ولا يعني بالتوكل ترك السعي.

وإذا قرر الإنسان وعزم بعد التروي والمشورة والاستخارة فلا يتردد ويتوكل على الله ويشرع في تنفيذ ما عزم عليه قال تعالى : { **وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله** } ومن أسباب السعادة **الطموح قدر المقدرات وترقية المقدرات.**

---

(1) المصدر نفسه ، ص 131.

(2) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، ابن قيم الجوزية ، الجزء الثاني ، ص 140.

(1) جاء في مسند الإمام أحمد بن حنبل بمعناه في فضل الاستغفار 170/4 ، 299/5.

(2) إحياء علوم الدين ، أبو حامد الغزالي ، الجزء الرابع ، ص 260.

ينبغي على الفرد معرفة مقدراته وإمكاناته ومحاولة استثمارها ، وعليه ألاَّ يتطلع إلى تحقيق أهداف لا تتناسب مع هذه المقدرات والإمكانات ، فإن ذلك سوف يشعره بالإحباط والفشل . ولكن هذا لا يعني ألاَّ يجتهد ويسعى إلى تحسين مقدراته بالعلم والتدريب وغيرها من الوسائل. فالحياة الخالية من الطموحات والأهداف والرغبات حياة خاملة ومملة ؛ فينبغي ألاَّ يكون الإنسان في حالة طموح كاذب ، أوحالة خمول مقعد ، ومن أسباب السعادة والنجاح **الالتزام بقدر الطاقة** ، فينبغي للفرد ألاَّ يلتزم بالقيام بأعمال كثيرة لا يستطيع الوفاء بها كلها أو أعمال يمكنه القيام بها ولكن ترهقه وتؤثر في حسن أدائه لها أو تجعله يقصر في واجبات أخرى ؛ فالإنسان عادة يقبل ويلزم نفسه بالقيام بأعمال كثيرة فوق طاقته إرضاء لمن يطلب مساعدته أو رغبة منه في تحقيق أكبر عدد من الأهداف في أقل زمن ممكن . ومن أسباب السعادة **تنويع الأهداف** فيحسن للفرد أن ينوع من أهدافه وغاياته ولا يجعل له هدفا واحداً ، لأنه قد يفشل في تحقيق هذا الهدف . فإذا نوع من أهدافه وحدث أن فشل في واحد منها فإنه قد ينجح في تحقيق هدف آخر ، فإن في ذلك سلوى عظيمة له ، " علماً بأن الأهداف الأساسية قد لا تتغير ".

ومن أهم أسباب السعادة **تكيف الفرد مع الظروف والمجتمع** الذي يعيش فيه ؛ وهذا التكيف بالنسبة للمسلم محكوم بقواعد الإسلام السمحة ، فليس للمسلم أن يتكيف مع أي مجتمع وبأي شكل من الأشكال ، وليس على حساب المبادئ والقيم والمثل الإسلامية.

إن من أهم أسباب السعادة كذلك مقدرة الفرد على التوفيق بين رغباته وأهدافه. ويمكن أن يتم هذا التوفيق بأن يكون له نظام لدرء التعارض بين رغباته وأهدافه وواجباته. وهذا قد يكون بالتخلي عن بعضها أو بوضعها في ترتيب بحسب أوليتها ، أو أن يجمع بينها بطريقة من الطرق. فالفرد قد يرى من الواجب عليه إرضاء أسرته وخدمتها وصرف جل وقته في ذلك ، وقد تكون له رغبة في الوقت نفسه في تحقيق طموحاته الشخصية ، وقد يرى أنه من الواجب عليه خدمة مجتمعه ، أو تحقيق مبادئ وأهداف معينة في الحياة وقد تتعارض هذه الواجبات والرغبات والأهداف مع بعضها.

إن أفضل طريقة لدرء التعارض بين الرغبات والواجبات هي الاحتكام لقوانين الشريعة الإسلامية وإلى داعي العقل فيما لم يرد فيه نص شرعي ؛ فإذا عجز عقله استشار أهل الرأي والاختصاص والحكمة ؛ فإذا صعب اتخاذ قرار معين يقرأ دعاء صلاة الاستخارة[1] ، فيقدم على ما يجد نفسه تميل إليه متوكلاً على الله سبحانه وتعالى. فالإنسان قد لا يستطيع أن يهتدي في كثير من الأمور بعقله وتجاربه إلى اختيار بديل من بين البدائل المختلفة لقلة المعلومات ، أو لصعوبة تقييم الموقف ، أو لشعور قوي في نفسه يدعوه إلى فعل أمرين متناقضين ، أو لغيرها من الأسباب ؛ إما إذا كانت هنالك جهة يثق في حكمتها وجميل اختيارها فإنه سيلجأ إليها وهو راض. وهذا اللجوء يزيل القلق ويخفف من الصراع الناتج من اتخاذ القرار.

أما إذا كان النزاع بين رغبات النفس وواجبات الدين ؛ فإن الإنسان يحتاج للتغلب على النزاع الناشئ في نفسه إلى مجاهدتها ؛ وقد يعاني الفرد في بداية الطريق ، ولكن النفس تسكن وتسعد بطاعة ربها وتوكلها واعتمادها عليه ورضاها بما أوجب

---

(1) المؤمن يستخير الله في كل أمر صعب عليه الاختيار أم لم يصعب ، قال جابر بن عبد الله رضى الله عنهما : كان رسول الله ε يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول " **إذا هم أحدكم بأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم هذا الأمر... ويسمى حاجته – خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال عاجل أمري وآجله – فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو عاجله وآجله – فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به** " [رواه البخاري : 162/7].

وحكم {**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم** } [الأحزاب : 36]. لا شك أن معرفة حكم الله قد تحتاج في بعض الحالات إلى جهد كبير وقد يقع الأمر المراد معرفة حكم الله فيه تحت نصوص قد يبدو أنها متعارضة ؛ فيحتاج المجتهد إلى التوفيق بينها ، ولكن سلواه قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " **إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران وإذا حكم واجتهد ثم أخطأ فله أجر** ".[1]

تجدر الإشارة هنا إلى أنه كلما كانت النفس مستقرة على فعل الخير ولا صراع في داخلها كان ذلك أفضل ، ولكن من ناحية أخرى فإن الذي تنازعه نفسه لفعل الشر ويختار الخير أفضل من الذي تستقر نفسه على فعل الشر ؛ على الرغم من أن الأول قد يعانى من هذا الصراع والثاني قد لا يعانيه ، والذي تنازعه نفسه لفعل الشر والخير سعيد ؛ باعتبار ما سيؤول إليه حاله في الآخرة، وباعتبار أنه إذا تجاوز هذه الحالة واستقرت نفسه على فعل الخير سعيد سعادة حقيقية ، إن التخلص من صراع النفس بالاستجابة لدواعي الشهوة والرغبة الحرام " **والمدمرة في حقيقة الأمر** " أو إزالة الصراع بغرض التكيف مع المجتمع الذي يمارس الحرام ، وقد يحدث راحة ، ولكنها تكون راحة زائفة وكاذبة وفي مستوى أدنى من مستوى الحياة الروحية والخلقية التي يقاوم الإنسان فيها دواعي الشهوة والهوى. إن رفض دواعي الشهوة رفضاً كاملاً حلالا كانت أم حراماً ورفض التكيف مع المجتمع مهما كان والتنطع في التعامل معه أمر غير طبيعي وغير سليم.

فإن المؤمن يجب أن تستقر نفسه في أمر إشباع رغباته وعلاقاته بأفراد مجتمعه على ما تسمح به الشريعة الإسلامية وما تتطلبه ، إن من أهم أسباب الصراع النفسي عند كثير من شباب المسلمين وشيبهم جهلهم بأحكام الشرع وعدم معرفتهم بما هو مشروع وحلال من شهوات النفس ورغباتها وما هو حرام ، وعلاج هذا هو التفقه في الدين ومعرفة أحكام الشرع.

ومن أسباب السعادة أن ينظر الإنسان إلى محاسن الآخرين ويغض النظر عن مساوئهم، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " **لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضي منها آخر** " لأنه إذا تتبع عوراتهم ونقائصهم لم تتم بينه وبينهم محبة وتصعب عليه معايشتهم ، هذا لا يعني عدم إسداء النصح لهم ولا يعني ترك أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

ومن أسباب السعادة : أن ينظر الفرد إلى من دونه وليس لمن فوقه وإلى ما حقق وليس إلى ما لم يحقق وتذوق نعم الله التي لا تحصى وشكر الله على تلك النعم { **وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأ زيدنكم** } [إبراهيم : 7]. وعلى الفرد ألاّ يؤخر عمل اليوم لغد ، وأن يفرغ من واجباته أولاً بأول فالإنسان عادة إذا واجهه عمل صعب أو غير محبب أخره لغد ، لأن النفس عادة تخلد إلى الراحة ، ولكن تأخير ما لابد منه يزيد من مشكلاته ومصاعبه خاصة إذا ظهرت له أعمال أخرى تحتاج إلى وقت وجهد كبير ، فعليه بالصبر والمجاهدة حتى ينجز ما ينبغي عليه عمله. ومن أسباب السعادة تعود النظام والحفاظ على الصحة وصدق الالتزام والشجاعة والمرونة والتفاؤل والثقة بالنفس ووضوح الهدف وقوة الدوافع الداخلية والتحكم في السلوك والشعور بالمسئولية. وعلى الرغم من أننا ذكرنا عدداً لا بأس به من العوامل المساعدة على تحقيق السعادة ، ولكن كان ذلك دون استقصاء لكل العوامل والأسباب.

---

[1] حديث متواتر المعنى أخرجه أحمد والشيخان وأصحاب السنن إلا الترمذي ، وانظر : الاجتهاد في الشريعة الإسلامية ، ص 169.

دور الجماعة والدولة في سعادة الفرد :

كان تركيزنا فيما سبق من حديث على الدور الذي يمكن أن يقوم به الفرد في تحقيق السعادة ، ولقد كانت الحلول والنصائح التي قدمناها موجهة للفرد.

لاشك أن للفرد دوراً كبيراً في تحقيق السعادة لنفسه ولغيره ، ولكن من ناحية أخرى لا يخفى ما للجماعة والدولة من دور في تحقيق السعادة لأفرادها. فهي قد تسهل لهم –أو تصعب عليهم – الحصول على الضروريات من المأكل والمشرب والملبس والمركب والزواج والعلاج وغيرها من ضروريات الحياة وحاجاتها وكمالياتها. ولا شك أن المجتمع الذي يقوم على أساس من العقيدة الصحيحة ، والذي يوفر الأمن لأفراده ، والذي تسوده روح العدالة والحرية والمساواة والتعاون والمحبة والتكافل والتساند والإحسان والرحمة والشفقة والعفة والطهارة والفضيلة والعمل والبذل والتضحية والعزة والكرامة والشورى وغيرها من قيم الإسلام ومثله وفضائله ، وتنتفي فيه الرذيلة ، وينتفي فيه الظلم والتفرقة والعنصرية والحسد والأنانية والبغض والغل والانتهازية والتكبر والاستعلاء والاستغلال ، لاشك أن هذا المجتمع يخلق للفرد حالة أمنية واقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية وعقدية تؤدي إلى سعادته . وهذه الحالة تتهيأ للفرد من كل المجتمع الإسلامي.

إمكانية السعادة :

تعتمد إمكانية السعادة على تعريفها وعلى إمكانية حدوث أسبابها ؛ فالسعادة قد تعرف بطريقة يلزم منها استحالة تجريبية ؛ فإذا عرفنا السعادة بأنها صافية وغير مشوبة بالهموم والغموم والآلام فإنه سيكون من المستحيل تحققها في الدنيا، فالسعادة الصافية غير ممكن حدوثها في الدنيا ، ونعني بالسعادة الصافية السعادة بمعنى تحقق الراحة الكاملة والمتعة الكاملة وتحقيق جميع الرغبات وإنتفاء جميع الأحزان والهموم والمتاعب والآلام والأمراض والمصائب والمكدرات.

وتحقق السعادة يعتمد على تحقق أسبابها ، وهناك ثلاثة أنواع من أسباب السعادة : استعداد الفرد وما يملك من مقدرات لنيل السعادة ، والظروف الخارجية التي تؤثر في نيل السعادة ، وسعى الفرد لتحقيقها . والاستعداد فيه ما هو مكتسب وفيه ما هو غير مكتسب ؛ فالاستعداد غير المكتسب قد يكون استعداداً جسمياً أو عقلياً أو نفسياً ، والاستعداد المكتسب هو الذي يكتسبه الفرد بإرادته وجهده وسعيه. والظروف الخارجية فيها ما يمكن أن يتحكم فيه الإنسان ويغيره لمصلحته وفيها ما لا يمكن أن يتحكم فيه. وبعض الناس تكون ظروفهم واستعداداتهم مواتية لنيل السعادة وبعض الناس تكون استعداداتهم وظروفهم غير مواتية لنيل السعادة. فالاستعدادات والظروف أقدار ، فالسؤال هل يمكن للفرد أن يتحكم فيها بإراداته وبسعيه مهما كانت ؟ يرى بعض الفلاسفة " **ابن مسكويه** " أن الإنسان يمكن أن يكون سعيداً مهما كانت استعداداته وظروفه. إن السعادة شيء داخلي لا يؤثر فيها عامل خارجي ، وتخضع لإرادة الإنسان ، فالإنسان يمكنه أن يتغلب على كل مشكلة وكل صعوبة تواجهه ويقبل كل مكروه يقع عليه ؛ إنه يمكن أن يرضى بالفقر والحرمان والأمراض والآلام مهما كانت. وسنناقش هذه المسألة عند الحديث عن مفارقة الرضا وعند الحديث عن مفهوم الابتلاء.

خصائص السعادة :

اعتماداً على ما تقدم ذكره يمكن ذكر بعض خصائص السعادة بإيجاز على النحو التالي:

- إن للسعادة معايير موضوعية يمكن بموجبها الحكم على سعادة الأفراد والجماعات.
- تتحقق السعادة بأمور متنوعة " **مادية ، نفسية ، عقلية ، روحية ، ذوقية ، وسلوكية** ".
- تتصل السعادة بكيان الإنسان كله وحياته كلها.
- تتحقق السعادة بالتزام الفرد والمجتمع بنظام وقيم معينة.
- يخضع تحقيق السعادة لظروف وعوامل خارج إرادة الإنسان.
- تعرض الأفراد لهذه العوامل والظروف يختلف من فرد إلى فرد.
- يمكن أن يسيطر الإنسان على هذه الظروف والعوامل إلى حد ما ، لأن الابتلاء قد يكون فوق قدرته وطاقته في التحمل ؛ ولا يعنى هذا عدم تحمل الابتلاء والتضجر منه.

معتقدات خاطئة عن السعادة

المال والسعادة :

يرى كثير من الناس أن السعادة تتحقق بجمع المال ، فبالمال يمكن للإنسان أن يحصل على متع الحياة ولذاتها ، لكن هذا الرأي لا يقوى للاختبار ، لأن في جمع المال والحفاظ عليه مشقة ، وكذلك تنتج مشكلات مختلفة عند إنفاقه. يقول ابن القيم عن المال " **إنه مقرون بالخوف والحزن فصاحبه حزين قبل حصوله خائف بعد حصوله** " وقال إن هنالك نصباً في تحصيله وجمعه وضبطه وقال : " إن غنى المال يستدعي الإنعام على الناس والإحسان إليهم فصاحبه إما أن يسد على نفسه الباب وإما يفتحه ، فإن سده على نفسه اشتهر عند الناس بالبعد عن الخير والنفع فابغضوه وذموه واحتقروه... وإذا عرف من الخلق أنهم يمقتونه ويبغضونه ولا يقيمون له وزناً تألم قلبه غاية التألم وأحضر الهموم والغموم والأحزان. وإن فتح باب الإحسان والعطاء فإنه لا يمكنه إيصال الخير والإحسان إلى كل أحد ؛ فلا بد من إيصاله إلى البعض دون الآخر ، وهذا يفتح عليه باب العداوة والمذمة من المحروم والمرحوم. أما المحروم فيقول كيف جاد على غيري وبخل علي ؛ أما المرحوم فإنه يتلذذ ويفرح بما حل له من الخير والنفع فيبقى طامعاً مستبشراً لنظيره على الدوام. وهذا قد يعتز غالباً فيفضي ذلك إلى العداوة الشديدة والمذمة. فالمال لا يحصل إلا بالمشاق والأنكاد والآلام. ولتعلق القلب بالمال وحفظه وحراسته ؛ فإن صاحبه لا يصبح إلا مهموماً ولا يمسي إلا مغموماً ؛ فهو بمنزلة عاشق مفرط المحبة قد ظفر بمحبوبه والعيون من كل جانب ترشقه ؛ فأي عيش ولذة لمن هذه حاله وقد علم أن أعداءه وحساده لا يفترون عن سعيهم في التفريق بينه وبين معشوقه. إن لذة الغنى بماله مقرونة بخلطة الناس ؛ وإن لم يكن إلا خدمه وأزواجه وسراريه وأتباعه ، إذ لو انفرد الغنى بماله وحده من غير أن يتعلق بخادمه أو زوجه أو أحد من الناس لم يكمل انتفاعه بماله ولا التذاذه به وإذا كان كمال لذته بغناه موقوف على اتصاله بالغير ؛ فذلك منشئ الآفات والآلام ؛ ولو لم يكن إلا اختلاف الناس وطبائعهم وإرادتهم ؛ فقبيح هذا حسن هذا ، ومصلحة ذلك مفسدة هذا ، ومنفعة هذا مضرة هذا ، وبالعكس فهو مبتلى بهم ؛ فلابد من وقوع النفرة والتباغض والتعادي بينهم وبينه ؛ فإن إرضاءهم كلهم محال. وهو جمع بين الضدين ، وإرضاء بعضهم وإسخاط غيرهم سبب الشر والمعاداة . وكلما طالت

المخالطة زادت أسباب الشر الحاصل من الأجانب والبعداء . وهذه المخالطة إنما حصلت من جانب الغنى بالمال. أما إذا لم يكن فيه فضيلة لهم فإنهم يتجنبون مخالطته ومعاشرته فيستريح من أذى الخلطة والعشرة".(1)

ولكن المال يمكن أن يكون سبباً في السعادة إذا أحسن الإنسان التصرف فيه وأنفقه في سبيل الله ، [عن أبي هريرة رضى الله عنه " **أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ε فقالوا : ذهب أهل الدثور بالدرجات العلا والنعيم المقيم يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ولهم فضل أموال يحجون ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون فقال : ألا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثلما صنعتم قالوا : بلى يا رسول الله قال : تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثة وثلاثين قال أبو صالح الراوي عن أبي هريرة رضى الله عنه لما سئل عن كيفية ذكرهن قال : يقول سبحان الله والحمد لله والله أكبر حتى يكون فيهن كلهن ثلاثاً وثلاثين مرة** ".(2) قال (صلى الله عليه وسلم) " **نعم المال الصالح للرجل الصالح** " . المال ابتلاء يجب تحمله بحسن التصرف فيه. فإذا اعتبر هدفا في ذاته تسبب في كثير من البلايا والهموم والغموم والآلام. والمال سبب في إدخال السرور نفوس المحتاجين ؛ وبذلك يكون سبباً في إدخال السرور على منفقه.

العلم والسعادة :

يرى ابن القيم أن العلم بخلاف المال يحدث لذة وسعادة حقيقية ؛ ولكني أرى أنه مثل المال قد يحدث لذة أو ألماً ، لأن لذة العلم مشوبة كذلك ، لأن العلم يتحصل عليه الإنسان بالمعاناة كما هو الحال بالنسبة للمال ؛ وقد يكون للعالم حساد ومعارضون. وقد يفسر كلامه بطريقة غير صحيحة وغير منصفة ، فيحرف فيقال إنه قال كذا ، دون أن يكون قد قال ذلك ؛ وهذا يحزنه ، وقد ينتقد كلامه من ليس أهلاً للنقد ؛ وقد يتحامل عليه النقاد وينقدونه نقداً غير عادل... وقد يُفَضَّل عليه من هو أقل علماً منه ، وقد يجره علمه إلى السجن والضرب كما حدث لكثير من العلماء. إن العلم مسئولية ، فالعالم إن تحدث أو كتب يخاف الخطأ وإن سكت وكتم يخاف عقوبة الكتمان. إن العلم واسع ولا حدود له والعمر قصير. قد يصرف الإنسان وقته في علم " **كما حدث لبعض العلماء** " ويتبين له أنه صرفه في علم لا يفيد كثيراً. وهنالك مشكلات تتعلق بالنشر فقد ينشر ما لا يستحق النشر ولا ينشر ما يستحق النشر . وقد تمنح الدرجات والتقديرات والجوائز لعلماء لا يستحقونها ، ولا تمنح لمن يستحقونها ، وغيرها من الأسباب التي تكدر صفو التلذذ بالعلم. ولكن من جعل علمه لخدمة المسلمين ولمرضاة الله ووطن نفسه على ذلك؛ فإنه سوف يسعد بعلمه.

من ناحية أخرى فإنه لاشك أن العلم سبب من أسباب السعادة وضرورة من ضروريات الحياة " **لكنه ليس سبباً كافياً** ". فالعلم من الأمور التي يجد فيها بعض الناس سلوى عظيمة وملجأ جميلاً من تعب الحياة ومشقاتها وفيه متعة وترويح وبه تزول شكوك الإنسان وظنونه وحيرته والشبهة التي ترد عليه.

---

(1) مفتاح دار السعادة ، ابن قيم الجوزية ، ص 120-122.

(2) متفق عليه ، زاد مسلم في رواية : " **فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : سمع إخوتنا أهل الأموال ما فعلنا ففعلوا مثله ؟ فقال:** (صلى الله عليه وسلم) **: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء** " (الدثور : هو المال الكثير).

إن فضل العلم عظيم فبه ينال الإنسان الدرجات العليا يوم القيامة { **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** } . لكن السعادة المتصلة بالعلم لا تصفو إلا إذا أراد به صاحبه ثواب الله ومرضاته. بالإضافة إلى ما ذكرنا فإن العلم سبب من أسباب سعادة المجتمع وركن يعتمد عليه قوامه ، وبه تكون قوته العسكرية والاقتصادية والثقافية والإعلامية.

أسباب السعادة الأخرى :

كذلك إذا نظرنا إلى الأسرة – الزوجة والأولاد – بوصفها سبباً من أسباب السعادة نجد أنها قد تكون سبباً من أسباب المعاناة : معاناة الإنفاق على أفرادها والسهر على راحتهم وقضاء حوائجهم ؛ بالإضافة إلى هذا فإن صاحب الأسرة قد يواجه مشكلة التوافق مع الزوجة ومشكلة تربية الأولاد وضمان مستقبلهم وغيرها من المشكلات وما يتصل بها من ابتلاءات ؛ ولكن إذا وفق الإنسان في أسرته فإنها سوف تكون سبباً في سعادته. وهكذا في جميع مسببات السعادة الدنيوية فإنها لا تصفو لأحد. فلا توجد سعادة صافية إلا في الدار الباقية. حيث لا هموم ولا أحزان ولا أكدار ، يقول تعالى : { **وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن** } [فاطر : 34].

ما بعد السعادة

الابتلاء والسعادة :

إن الدنيا دار ابتلاء ، فالله سبحانه وتعالى يبتلي الناس فيها بأصناف شتى من الابتلاءات ، يبتليهم بالهموم والغموم والأحزان والهزائم والقتل وبما يكرهون ، إنه يبتليهم بذلك مؤمنين كانوا أم غير مؤمنين. يقول تعالى : { **إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون** } **[النساء : 104]** ، { **كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون** } **[الأنبياء : 35]**، ويقول تعالى : { **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** } **[آل عمران : 142]** ، ويقول الله تعال : { **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذي خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب**} **[البقرة : 214]** ، وقال تعالى : { **إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه** } [الإنسان : 2]، وقال تعالى : { **لتبلون في أموالكم وأنفسكم** } [آل عمران : 186] ، ويقول تعالى : { **وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم** } **[البقرة : 49]** ، ويقول تعالى : { **ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ! إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون** } [آل عمران : 152–153] فالمؤمن يبتلى بالمكاره للتمحيص والاختبار والتطهير من الذنوب والصقل ؛ وإذا صبر واحتسب يجد الجزاء الأوفى في الآخرة ؛ فالآية الأخيرة تشير إلى أن الصحابة قد ابتلاهم الله عز وجل بالغم فقال : { **فأثابكم غماً بغم** } " أي كرباً بعد كرب ،

قتل من قتل من إخوانكم ، وعلا عدوكم عليكم وما وقع في أنفسكم من قول : قتل نبيكم فكان ذلك متتابعاً عليكم غماً بغم".(1)

وأفضل البشر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وجد من أذى الكفار ما وجد ؛ ففي غزوة أحد أصيبت رباعية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وشج في وجنته ولكمت شفته [2] . ولقد كان صلى الله عليه وسلم يحزن لتكذيب الكفار له ومكرهم به ، قال تعالى : { **قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذّبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** } [الأنعام : 33]. ولقد تقدم أنه شرع الدعاء وورد عنه (صلى الله عليه وسلم) ؛ فالمؤمنون تصيبهم المكاره من أمراض وغيرها ، ففي حديث أبي سعيد الخدري أنه قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد فإذا برجل به يقال له أبو أمامة جالساً فيه ، فقال يا أبا أمامة مالي أراك جالساً في المسجد في غير وقت الصلاة ؟ قال هموم لزمتني وديون يا رسول الله. قال (صلى الله عليه وسلم): " **أفلا أعلمك كلاماً إذا قلته أذهب الله تعالى همك ... إلى آخر الحديث** ".

يقول بعض الناس : إن الإنسان قد يصل إلى درجة في العبادة لا يشعر فيها إلا بلذة ومتعة دائمة . هذا أمر ينافي ما ذكرنا من أدلة. إن المؤمن الذي تكون له أسرة وعمل وأطفال يود تربيتهم والعناية بهم ، والذي يتعامل مع الناس بالبيع والشراء وأنواع المعاملات ، والذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر والذي يجاهد الكفار والمنافقين لا بد أن يجد عنتاً ومشقة في ذلك ولا بد أن يجد ما يكره من الإعراض أو المخالفة أو الأذى. والمؤمن يحزن إذا تفوق الكفار على المسلمين في القوة والعتاد – وهو الحال اليوم – ويحزن لإذلال المسلمين والبطش بهم ، ويحزن لموالاة بعض المسلمين للكفار ، ويحزن لكيدهم بعضهم بعضاً. وإذا تصورنا أن المسلم قد لا يحزن لحادثة من حوادث الدنيا ومما يجد فيها من مكاره فإن المؤمن يخاف من مصيره في الآخرة. يخاف من الحساب وهول العقاب وشدته ومن الصراط والميزان يقول تعالى : { **والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة** } [المؤمنون : 60] ، أي يتصدقون وقلوبهم خائفة يظنون أن ذلك لا ينجيهم من عذاب الله ؛ لأنهم إلى ربهم راجعون . وسبب الوجل هو أنهم يخافون ألا يقبل منهم ذلك على الوجه المطلوب.[1]

السلوى :

سلوى المؤمن تتمثل في رجائه رفع البلاء في الدنيا ورجائه ثواب الله في الآخرة ، يقول الله تعالى : { **إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون** } [النساء : 104]. ويقول الله تعالى : { **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ! إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ! وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ! ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين**} [آل عمران : 139-141]. فسلوى المؤمن أن البلاء للتمحيص والاختبار والتطهير من الذنوب ، والله وعد المؤمن إما الشهادة أو الفوز بالجنة وإما النصر. لكن سلوى المؤمن أنه ما من شيء يصيبه إلا كتب الله له به أجراً. يقول (صلى الله عليه وسلم) : " **ما من شيء**

---

(1) تفسير ابن كثير ، الجزء الأول : ص 417.

(2) المصدر نفسه ، ص 416 .

(1) زبدة التفسير من فتح القدير مختصر من تفسير الشوكاني ، محمد سليمان عبد الله الأشقر ، ص 451.

يصيب المؤمن حتى الشوكة تصيبه إلا كتب الله بها حسنة أو حطت عنه بها خطيئة ".[1] وقال (صلى الله عليه وسلم) " **ما يصيب المؤمن من وصب ولا تعب ولا سقم ولا حزن حتى الهم يهمه إلا كفر به من سيئاته** ".[2] ومن سلوى المؤمن أن الله يلطف بعباده ويخفف البلاء عنهم يقول الله تعالى : { **إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجس الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام** } [الأنفال : 11].

ومن سلوى المؤمن أن هنالك دواعي للرضا بالابتلاء ؛ ذكر منها ابن قيم الجوزية ستين داعياً نذكر بعضها ونترك التفصيل عند الحديث عما سميناه بمفارقة الرضا. إن من دواعي الرضا أن الابتلاء قدر من أقدار الله وأن الله يبتلى المؤمنين حسب درجاتهم. " **أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون** ".[3] والمؤمن يرضى لأنه " **مفوض والمفوض راض بكل ما اختاره له من فوض إليه ولا سيما إذا علم كمال حكمته ورحمته ولطفه وحسن اختياره**".[4] والمؤمن يرضى بالابتلاء ، لأنه يعلم أنه جاهل بعواقب الأمور وسيده أعلم بمصلحته وبما ينفعه.[5] والمؤمن يرضى بالابتلاء لعلمه بأنه إذا رضي انقلبت في حقه نعمة ومنحة وخف عليه حمله وأعين عليه ؛ وإذا سخط تضاعف عليه وثقل كله ولم يزد إلا شدة ؛ فلو أن السخط يجدي عليه شيئاً لكان له فيه راحة أنفع له من الرضا.[6]

ومن سلوى المؤمن أنه يرجو رفع البلاء في الدنيا وثواب الآخرة فيشعر بنفحات السعادة تتخلل أوقات الألم والهم والحزن.

مفارقة الرضا :

يقول ابن القيم الجوزية " وليس من شرط الرضا ألا يحس بالآلام والمكاره بل أن لا يعترض على الحكم ولا يسخطه. ولهذا أشكل على بعض الناس الرضا بالمكروه وطعنوا فيه ، وقالوا هذا ممتنع عن الطبيعة ، وإنما هو الصبر، وإلا فكيف يجتمع الرضا والكراهة وهما ضدان ، وأعطى حلا لهذه المفارقة فقال: "والصواب أنه لا تناقض بينهما وأن وجود التألم وكراهة النفس له لا ينافي الرضا ، كرضا المريض بشرب الدواء الكريه ؛ ورضا الصائم في اليوم الشديد الحر بما يناله من ألم الجوع والظمأ ، ورضى المجاهد بما يحصل له في سبيل الله من ألم الجراح وغيره ".[1]

الرضا رضى بمكروه ورضى بشيء غير محبب للنفوس ، والشيء غير المحبب للنفوس كالألم والهم والغم لا يرضى به الإنسان ، إذن فالرضى رضى بشيء لا يرضى به الإنسان؛ لكن إذا عرفنا الرضا بأنه رضي بمكروه لغيره ؛ فإن ما هو مكروه لغيره قد لا يكون مكروهاً له. والمكاره ابتلاءات يبتلى بها المؤمنون ؛ ولا يمكن أن يبتلى المؤمن بما يحب. والحل الذي أشار إليه ابن القيم أنه لا يرضى بمطلق المكروه ولكنه يرضى به لأجْلِ محبوب ؛ كرضا المريض بالدواء لكي يجد نعمة العافية ؛ فرضا المؤمن المبتلى بالألم والهم والغم يكون لأجل اللذة والسعادة التي يجدها في الآخرة ؛ فهو يرضى بقدر

---

(1) أخرجه البخاري في المرضى ، رقم 5209 ، وأخرجه مسلم في البر والصلة والأدب حديث رقم 4664 ، أخرجه الترمذي في الجنائز حديث رقم 888 وأخرجه أحمد بن حنبل في جـ6/39-42 ، وأخرجه مالك في الموطأ رقم 1476.

(2) أخرجه البخاري في المرض رقم 5210 ، وأخرجه مسلم في البر والصلة والأدب حديث رقم 2964 ، وأحمد بن حنبل في المسند جـ3/303 ، 335 ، 4022.

(3) جامع الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم حديث رقم 431.

(4) ابن قيم الجوزية ، مدارج السالكين ، الجزء الثاني ، ص 214 .

(5) المصدر نفسه.

(6) المصدر نفسه ، ص 315.

(1) مدارج السالكين ، الجزء الثاني ، ابن قيم الجوزية ، ص 210.

الله ويصبر ويحتسب رجاء ثواب الله في الآخرة. فسعادة المؤمن رضاه ورجاؤه زوال البلاء والمكروه في الدنيا ورجاؤه ثواب الله في الآخرة. فهو يتدبر ويتأمل ذلك فتمر به أوقات تتخلل أوقات الابتلاء يجد فيها نفحات السعادة. والمؤمن يتمنى ويرجو زوال المكروه في الدنيا ؛ لذلك دعا الرسول ε لزوال المكاره وشرع ذلك وشرع التداوي ؛ ووردت أدعية كثيرة عنه (صلى الله عليه وسلم) كان يدعو بها الصحابة والصالحون " **قد يستثنى بعض المتصوفة من ذلك فقد كانوا يتمنون المكاره لكي يجدوا ثواب الآخرة** ". وتجدر الإشارة أن المعاناة كانت سبباً في إبداعات ومساهمات عظيمة في تاريخ البشر. وإن المعاناة في كثير من الأحيان يتبعها إنجاز تتبعه سعادة ورضى.

سعادة الآخرة :

إن السعادة في الإسلام تشمل سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ؛ وسيتضح أن السعادة الحقيقية هي سعادة الآخرة. وهذا البحث يهتم في المقام الأول بسعادة الدنيا – إمكانيتها ومقوماتها وأسبابها – لأجل ذلك سيكون حديثنا عن سعادة الآخرة موجزاً . إن الحديث عن وجود سعادة الآخرة يحتاج إلى برهان وجود الجنة كما وصفها القرآن الكريم وكما وصفتها السنة الشريفة . على هذا الأساس عندما يقال عن إنسان إنه سعيد قد يقصد بذلك سعيد في الدنيا ، لأنه حقق ما يريد ، وقد يقصد به أنه سيكون سعيداً أي ستؤول حاله إلى حال سعيدة ، فقد نصف شخصاً مثلاً بأنه سعيد ، لأنه سينتقل إلى مكان وبلد يكون عيشه فيها سعيداً ورغداً . وكذلك يقال عن المؤمنين الصالحين إنهم سعداء " **في عالم الذر وفي علم الله أو هم أجنة في بطون أمهاتهم** " لما سيؤول إليه حالهم في الآخرة من النعيم المقيم واللذة والمتعة الدائمة. ويقال إن الكفار أشقياء لما سيؤول إليه حالهم من العذاب الأبدي. والقرآن وصف سعادة الآخرة ووصف فيها لذات حسية ومعنوية مع الفارق مقارنة بلذات الدنيا. ذكر جان كزنوف في معرض نقده لمفهوم السعادة في الإسلام كلاماً قال فيه : إن القرآن يصف نعيم الجنة التي فيها سعادة المسلم بأنه يحوى لذات حسية، ويصف هذا النعيم بأنه دائم والحياة فيه خالدة. فقال ناقداً لصورة النعيم التي وردت في القرآن " إن الخلود يبعث على الملل(1)... وهل تعرفون شهوات لا يؤول أمرها إلى الغثيان ؛ ولا سيما عندما ينالها أصحابها بدون كفاح عندما يكفي أن يمدوا أيديهم للحصول عليها... أي ملل نشعر به إذا ما قدمت إلينا باستمرار وإذا لم يتح لنا الوقت لاشتهائها ؛ ولكن لابد أن تجرى الأمور على هذا النحو في جنة النعيم ؛ وذلك لأنكم لو أدخلتم إليها الانتظار والحرمان لكنتم على درب الألم ".(2) نقول إن سعادة الجنة ينالها أصحابها بكفاح في الدنيا مثلهم مثل عامل كد وتعب أثناء العام وحصل بعد ذلك على عطلته السنوية وقضاها في فندق مريح. ومما يزيد سعادة الفرد أنه إذا كان في الماضي يكد ويتعب وصار له حاضر سعيد ؛ فإن سعادته بحاضره تزداد بتذكره عناء الماضي : { **إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين** } ، { **الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن** } ، { **لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب** }. وإذا كان في الحاضر شقياً وفي الماضي سعيداً فإن شقاوته في الحاضر تزداد بتذكره الماضي. { **إن الخاسرين الذي خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين** }

وقال : " **إن أوجه الشهوات من النساء والشراب والأكل إنما جعلت لإرضاء ذوق العربي**".[1] لكن تنبه الكاتب بعض الشيء لما قد يكون رداً على اعتراضاته ؛ فقال: قد يقال " **لا تحكموا على الفردوس بأذواقكم وأحكامكم الأرضية** ".[2] لا تتحدثوا

---

(1) السعادة والحضارة ، جان كزانوف ، ترجمة عادل العوا مطبعة جامعة دمشق ، دمشق ، 1972م ، ص 5.

(2) المصدر نفسه ، ص 9.

(1) المصدر نفسه ، ص 36.

(2) المصدر نفسه ، ص 14.

عن الملل والسأم والقلق ، لكن جان كزنوف لا يعجبه هذا الرد فيعترض عليه بقوله : " **إننا سنكون أمام أوصاف للجنة لا تخاطب الخيال والحساسية** ".(3)

نقول رداً على هذا الكاتب أن القرآن ذكر لذات حسية ولذات معنوية والملذات الحسية التي ذكرها القرآن مثل لذة أكل الفاكهة وشرب الخمر والاستمتاع بالنساء ؛ وليست فواكه الجنة وخمرها ونساؤها كفواكه الدنيا وخمرها ونسائها إنها وصفت بهذه الصورة – والله أعلم – لكي يدركها الإنسان، ولكي يكون لديه إحساس بها يولد حافزاً للعمل لنيلها . ولكن القرآن لم يكتف بوصف الجنة بهذه الطريقة إنما وصفها بأوصاف الكمال ؛ فقال عز من قائل : { **لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد** } [ق : 35] . وللإنسان أن يطلق لخياله العنان في تصور ما بها من نعيم وكذلك يصفها الرسول صلى الله عليه وسلم بأن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. كما أن الملذات التي وردت في القرآن في وصف لذات الجنة ليست حسية فقط – مع أنني لا أرى مبرراً للتقليل من قدر هذه الملذات الحسية وعدم اعتبارها لذات تؤدي إلى سعادة حقيقية – فالقرآن يصف أصحاب الجنة بأنهم { **على سرر متقابلين** } [الصافات : 44]. يستمتعون بلذة الصحبة والمحادثة. إن ألذ الأمور في الجنة وأكثرها بهجة ومتعة النظر إلى وجه الله الكريم قال تعالى : { **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** } [يونس : 26]. قيل "الحسنى" : نعيم الجنة "وزيـادة" : النظر إلى وجهه الكريم. ويقول الله تعالى : { **ورضوان من الله أكبر**} [التوبة : 72] ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " **إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك ، فيقول : هل رضيتم ، فيقولون: ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحداً من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك؛ قالوا : ربنا وأي شيء أفضل من ذلك ، قال : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً** ".

إن جان كزنوف ظن خطأ أن أهل الجنة يصيبهم الملل والسأم ؛ وأن الخلود قد ينتج منه الرغبة في زواله ، لكن القرآن يثبت أن أهل الجنة لا يريدون زوال ما هم فيه من نعيم يقول تعالى : { **خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً** } [الكهف : 108] ، وهذا أمر متصور عقلاً ، وكذلك يمثل وجوداً لأن العليم الخبير أخبر عنه. إن لذات الدنيا مشوبة بالآلام والهموم والأحزان ، ولكن لذات الجنة خلاف ذلك يقول تعالى : { **لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون** } [الصافات : 47] ، يقول تعالى : { **وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن** } [فاطر : 34] . لأجل ذلك لا يريد الإنسان زوالها.

Åä ÇáãÔßáÉ ÇáÊí ÃËÇÑåÇ ÇáßÇÊÈ åäÇ åí ãÔßáÉ ÇáÍÏíË Úä ÚÇáã ãÛÇíÑ ææÌæÏ ãÛÇíÑ ááÚÇáã ÇáÐí äÚíÔ Ýíå. æáÞÏ ÈÍË åÐå ÇáãÔßáÉ ÚáãÇÁ ÇáãÓáãíä ÚäÏãÇ æÇÌåÊåã ãÔßáÉ Ýåã ÕÝÇÊ Çááå ÓÈÍÇäå æÊÚÇáì. æÝí ÇÚÊÞÇÏí Ãä ÇááÛÉ íãßä Ãä ÊÊÎØì ÚÇáã ÇáÔåÇÏÉ æÊÊÍÏË Úä ÚÇáã ÇáÛíÈ æÇáÚÇáã ÇáÚáæí.

(3) المصدر نفسه ، ص 5.